بحث حول البداء

تأليف

السيد عبد الله السيد حسن الموسوي البحراني المحرقي

منشورات
مؤسسة الأعلمي للمطبوعات
بيروت لبنان
ص.ب: ٧١٢٠

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحَمْدُ لِلَّه الفَاشِي فِي الخَلق أمرُه وحَمدُهُ الظَّاهِرِ بالكَرَم مجدُهُ ، الباسِطِ بالجُودِ يَدَهُ الَّذِي لاَ تَنقصُ خزَائِنُهُ وَلاَ تَزيدُهُ كثرةُ العطآءِ إلَّا جُوداً وَكَرماً إنَّهُ هُوَ العَزيزُ الوَهَّابُ أحمدُهُ حَمداً كثيراً على نَعمائِهِ وأسْتَعينه وأستَهدِيهِ وأصلي وأسلم على صَفوةِ أنبيائه وخَاتمهم وَسَيِّدِهِم مفتاحِ الخَير والبَركَةِ نبي الرَّحمةِ وقائد الأمة البشير النذير الداعي إلى الله بإذنه والسراج المنير مولانا الأعظم ونبينا الأكرم محمد بن عبدالله وعلى آله الهداة البررة والقادة الخيّرة لا سيما بقية الله في أرضه وسفيره في خليقته وبابه الذي منه يؤتى وعينه الساهرة على مصلحة عبادة مولانا ومقتدانا صاحب العصر والزمان الحجة بن الحسن عجّل الله تعالى فرجه الشريف روحي وأرواح العالمين ومن في الوجود لتراب مقدمه الشريف الفداء ، وبعد :

بين يدي قارئي العزيز هذا الكتاب الذي يتكفّل بالشرح والتحليل لموضوع (البداء) وقد جاء على أثر طلب وجّهه لي بعض الشباب المؤمن الذي يهمّه التعرّف على مبادئه ومعتقداته ، وقد جاء طلبهم هذا بعد انتهائي من كتابي الذي تحدّثت لهم فيه عن موضوع (الجبر والتفويض) والذي نال إعجابهم بأسلوبه الشيّق كما حدّثني بذلك جملة منهم حيث أثنوا عليه بما

ذكرت وطلبوا إليّ إن كان بوسعي أن أتحدث لهم في جولة سريعة عن :

موضوع البداء في كتاب مستقل وذلك لكونه أولاً من العقائد المهمة التي ما عبد الله تعالى بشيء أفضل منه على حد تعبير مولانا الإمام الأعظم جعفر بن محمد الصادق عليه آلاف التحية والسلام ، وثانياً لكونه من المفاهيم التي يتعسّر في الغالب على سائر الناس فهمها وإنما يحتاجون في فهمها إلى شيء من الشرح والتوضيح ، فأجبت ملتمَسهم مستعيناً بالله تعالى ومتوكلاً عليه وطالباً منه العون والتوفيق والسداد إنه ولي ذلك والقادر عليه وقد سميته (بحث حول البداء) ولخّصته بالعناوين التالية :

١) مفهوم البداء اللغوي .
٢) مفهوم البداء الاصطلاحي .
٣) المعاني الصحيحة للبداء عند العلماء .
٤) الدليل القرآني على ثبوت البداء .
٥) تصريحات أهل البيت بثبوت البداء .
٦) ما رواه الجمهور حول البداء .
٧) الدعاء يؤكّد لنا البداء .

هذه موضوعات الكتاب التي سوف أتحدث لقارئي الكريم عنها ولا يخفى أنّي سوف أنقل مع كل آية أستدل بها على البداء تفسيرها الخاص بها حرفاً بحرف وبدون تصرف من تفسير الميزان لمولانا المقدس آية الله الكبرى الطباطبائي قدّس الله نفسه الزكية وذلك لاستفادة القارىء بواسطة التفسير لما نحن بصدده أولاً وتحصيلاً لفائدة أخرى وهي ذات التفسير ثانياً ، وسوف يكون لي تعليق بسيط في نهاية التفسير أُبيّن فيه وجه الإستدلال بالآية على ثبوت البداء والله المسؤول أن يوفقني لذلك وهو من وراء القصد .

المؤلف

٢٠ جمادة الأولى ١٤٠٧ هـ ١ - يناير ١٩٨٧م

مفهوم النداء النحوي

البـداء : في اللغـة : مصـدر بـدا بمعنى ظهـر ، وفي العـرف : يعني الظهور بعد الخفاء ، فيقال مثلاً : فـلان كان عـازماً على فعـل هذا الشيء ثم بدا له فرجع عنه .

وبتعـريـف آخـر البـداء : بالفتح والمدّ أكثر مـا يطلق في اللغـة على ظهور الشيء بعد خفـائه ، وحصـول العلم به بعـد الجهل ، أو هـو استصواب شيء علم بعد أن لم يعلم .

قال الشاعر العربي :

ليتني كنت قبـل مـا قــد بـدا لي في تـلال الجبال أرعى الـوعـولا

يعني : قبل ما قد ظهر لي .

قال تعالى : ﴿ وبدا لهم من الله ما لم يكـونوا يحتسبـون ﴾ بمعنى ظهر لهم به من أفعال الله بهم ما لم يكن في حسبانهم وتقديرهم .

ومثله قوله تعالى : ﴿ وبدا لهم سيّئات ما كسبوا وحاق بهم مـا كانـوا به يستهزؤون ﴾ .

بمعنى ظهـر لهم جزاء كسبهم وبـان لهم ذلك ، وتقـول العرب قـد بـدا

لفلان عمل حسن وبدا له كلام فصيح أي ظهر له عمل حسن وكلام فصيح . .

وقال ابن الفارس في تعريفه لكلمة البداء :

كلمة البداء مصدر الفعل الثلاثي الماضي (بدا) بمعنى ظهر يقال : بدا الشيء يبدو إذا ظهر ، فهو باد . ونقله الأزهري عن الليث وحكاه الزبيدي ، وقد نص الفيومي على نفس المعنى إلاّ أنه قال : يتعدّى بالهمزة فيقال : أبديته ، وبدا الشيء يبدو بدواً وبدوّاً (بضم الباء والدال وتشديد الواو) وبداءاً وبدا الأخيرة عن سيبويه ، ظهر وأبديته أنا أظهرته، وتدور بقية معاجم اللغة حول نفس المعنى الذي أثبته هؤلاء بأن كلمة بداء تعني الظهور ، ودللوا على ذلك باشتقاقات لغوية تشير إلى المعنى المذكور .

وإذا أرادت العرب أن ترفع من قيمة الرجل فهي تصفه بأنه ذو « بدوات » أي ذو آراء تظهر له فيختار بعضها ويسقط بعضاً ويبدو أن الدلالة تشير إلى تطور فكر المرء في مواقفه إزاء موارد الحياة العامة التي تخضع دائماً للتغير والتباين إن الشاعر يشير إلى ذلك بقوله :

من أمر ذي بدوات ما يزال له بزلاء يعيا بها الجثامة اللبد

يقول أبو دريد: (قولهم أبو البدوات ، معناه ، أبو الأراء التي تظهر له واحدها بداء) .

ومنه اشتقت أيضاً (البدو والبادية) قيل سمّيت بادية لبروزها وظهورها ، وقيل للبرية بادية لكونها بارزة ، وشاهد البدو قوله تعالى : ﴿ وجاء بكم من البدو ﴾ « أي البادية » من هنا جاءت البداوة خلاف الحضر باعتبار أن الفرد إذا خرج إلى البادية ظهر فلم تحجبه الدور ، أو البنايات ، كما هو الحال في الحضر ، وسمّي خلاف الحضر ، بدواً من هذا لأنهم في براز من الأرض وليسوا في قرى تسترهم أبنيتها ، قال الشاعر القطامي :

فمن سكن الحضارة أعجبته فأي رجال بادية ترانا

وفي القرآن الكريم ورد المعنى إحدى وثلاثين مرّة موزعاً على ستّة عشر سورة ، يفيد معنى الظهور حسب مدلول الآيات الكريمة .

قال بعض الأكابر : إلّا أن البداء قد اكتسب في الاستعمال اختصاصاً في ظهور رأي جديد في أمر ، ولذلك لم يذكر في اللفظ فاعل الفعل ، يقال : بدا لي في كذا أي بدا لي فيه رأي جديد خلاف ما كان من قبل ، ولازم ذلك عدم الاستمرار على ما كان عليه سابقاً من فعل أو تكليف أولاً بل هو أعم لأن ظهور الرأي الجديد قد يكون عن العلم الحادث بعد الجهل بخصوصيات ما كان عليه أو ما انتقل إليه وقد يكون لتغيّر المصالح والمفاسد والقيود والموانع فيهما ، نعم إن الغالب فينا هو الأدل فيتبادر عند الاستعمال الجهل والندامة .

وقال إمام المفسرين وقدوة الفقهاء والمجتهدين مولانا آية الله السيد محمّد الحسين الطباطبائي عطّر الله رمسه وقدّس الله نفسه في تعريفه للبداء ما حرفيّته :

البداء من الأوصاف التي ربما تتصف بها أفعالنا الاختيارية من حيث صدورها عنّا بالعلم والاختيار فإنا لا نريد شيئاً من أفعالنا الاختيارية إلاّ بمصلحة داعية إلى ذلك تعلّق بها علمنا وربما تعلّق العلم بمصلحة فقصدنا الفعل ثم تعلّق العلم بمصلحة أخرى توجب خلاف المصلحة الأولى فحينئذٍ نريد خلاف ما كنا نريده قبل وهو الذي نقول بدا لنا أن نفعل كذا أي ظهر لنا بعد ما كان خفياً عنّا كذا،والبداء الظهور فالبداء ظهور ما كان خفياً من الفعل لظهور ما كان خفياً من العلم بالمصلحة ، ثم توسّع في الاستعمال فأطلقنا البداء على ظهور كل فعل كان الظاهر خلافه ، فيقال بدا له أن يفعل كذا أي نسبه إلى مجموع علّته التامّة التي يستحيل معها عدم الشيء وعند ذلك يجب وجوده بالضرورة وله نسبة إلى مقتضيه الذي يحتاج الشيء في صدوره عنه إلى شرط وعدم مانع فإذا وجدت الشرائط وعدمت الموانع تمّت العلّة التامة

ووجـوب وجود الشيء ، وإذا لم يـوجد الشـرط أو وُجد مـانع لم يؤثـر مقتضيه الذي كان يظهر بوجوده خلاف هذا الحادث كان موجود ظهـر من علّته خـلاف ما كان يظهر منها ، ومن المعلوم أن علمه تعالى بالموجودات والحوادث مطابق لما في نفـس الأمر من وجودها فله تعالى علم الأشياء من جهة عللها التامة وهو العلم الذي لا بداء فيه أصلاً وله علم بالأشياء من جهة مقتضياتها التي موقوفة التأثير على وجود الشرائط وفقد الموانـع هذا العلم يمكن أن يـظهر خـلاف ما كان ظاهراً منه بفقد شرط أو وجود مانع .

مفهوم البداء الاصطلاحي

لقد أوضحنا لقارئنا الكريم فيما سبق بأن كلمة البداء في لغة العرب : تعني الظهور والمحنا بصورة إجمالية عابرة عند نقلنا لقول بعض الأكابر بأن كلمة البداء قد اكتسبت في الاستعمال اختصاصاً في ظهور رأي جديد وبالإضافة إلى ما ذكر نقول إن البداء :

في الجانب الاصطلاحي قد انسحب على الأمور الممكنة التي تقع في عالم التكون والتي تمتاز بظاهرة (التغير) بحيث تبدو هذه الأمور ثابتة .

أولاً كأنها تسير وفق سنة واحدة ، ولكن سرعان ما يظهر فيها التبدل ولهذا اتخذت الحال التي تجري بمقتضاها هذه الحوادث صفة (البداء) بحيث يظهر منها خلاف ما كانت عليه أولاً .

ومن هنا ظهرت مشكلة غاية في التعقيد في تطور الجانب الاصطلاحي للكلمة ، فمن المتعارف عليه أن الحياة تسير وفق عناية آلهية تامّة ، وان الله لا يجوز عليه التبدل والتغير ، وهو أمر ثابت لكل من تكلّم على الظاهرة نفسها ، هذا من جهة ومن جهة أخرى ، فقد يلمس أن هناك تغيراً ملموساً يحدث في دائرة معينة ، فهناك تغير واضح تسلك بمقتضاه بعض حوادث عالم التكون ، ولهذا يتطلب الأمر حلاً للمشكلة القائمة بين عدم تغير الموقف الإلّهي من

جانب وطبيعة التغير الملموس في حوادث عالم التكوين المشمول بالإرادة الإلّهية من جانب آخر ، وقد تبلور عن هذا الموقف اتجاهات ثلاثة حددت من خلالها طبيعة اللفظة في جانبها الاصطلاحي .

الاتجاه الأول : وهو الاتجاه الذي يجعل التغير في المعلوم دون العلم فالعلم الإلّهي ثابت أزلاً وأبداً ، وأما التغير الملموس فهو في طبيعة المعلوم ، وأن هذا التغير معلوم به أزلاً ، ولهذا الاتجاه جانبان :

أ) جانب كلامي .

ب) جانب فلسفي .

أما الجانب الكلامي فيمثّله الشيخ الصدوق في كتابه (التوحيد) حيث يذهب إلى أن هناك طرفين للقضية الواحدة ، ولكل طرف ظرفه الخاص بحيث يأمر الله العمل بطرف تلك القضية أو الواقعة ، ثم ينهي عنه بمثل ما أمر به ، لعلمه بأن صلاح العباد يترتب على ذلك الأمر والنهي بالنسبة إلى طرفي القضية الواحدة ، وهذه الحادثة بطرفيها مقررة أزلاً في علم الله والبداء عند الصدوق بهذا المعنى يطابق النسخ تماماً ، قال : (يجب علينا أزلاً نقر لله - عز وجل - بأن له البداء ، أن له أن يبدأ بشيء من خلقه فيخلقه قبل شيء ثم يعدم ذلك الشيء ويبدأ بخلق غيره ، أو يأمر بأمر ثم ينهي عن مثله أو ينهي عن شيء ثم يأمر بمثل ما نهى عنه ، وذلك مثل نسخ الشرائع . وتحويل القبلة وعدة المتوفي عنها زوجها ، ولا يأمر الله عباده بأمر في وقت إلاّ وهو يعلم أن الصلاح لهم في ذلك الوقت . ويصرّح بأنه لا خلاف بينه وبين المسلمين كافة إلاّ في اللفظ فقط ، وهذه أيضاً طريقة السيد الشريف المرتضى والحر العاملي في تفسيرهما لطبيعة البداء وبأنه مخصوص بأحكام القضاء والقدر كما هو عليه النسخ .

أما الجانب الفلسفي من الاتجاه الأول ، فيمثله الفيلسوف الداماد حيث يعطي للبداء مفهوم النسخ أيضاً ولكنه نسخ بطريقة أخرى تختلف عن النسخ

المعروف فيذهب في تقسيمه إلى نسخ تشريعي ونسخ تكويني والبداء يقع في الثاني منهما ، وهكذا يكون التغير المشمول (بالبداء) عند الداماد هو في ظاهر عالم التكوين لا في العلم الإلهي ، فالله لا يتصور فيه حركة أو انتقال أو تغير وتبدل (إنما التجدد واللحوق والتدرج والتعاقب في طبيعة المعلومات) ، ولما كانت هذه المعلومات ترتقي بأسبابها إلى الله عن طريق الارتباط العلّي فهي مستندة في تغيرها إليه تعالى ، دون تغير العلّة الأولى وعليه فالبداء (هو استناد المتغيرات والتبدلات في الأطوار الإيجابية والأحكام التكوينية إلى الباري تعالى ووقوع التبديل لا في القضاء ولا في الدهر ، بل في الزمان ، وفي بعض القدر ، من غير لزوم تغيّر وتبدل وتلاحق وتعاقب بالقياس إلى الموجد المكون ـ جلّ سلطانه) .

ويقارن الداماد بين منزلة البداء في التكوين ومنزلة النسخ في التشريع بحيث أنهما ينتهيان عنده إلى نفس المفهوم ، إلّا أن البداء دائرته عالم التكوين بينما النسخ مجاله عالم التشريع ولهذا يقول : (الذي في أمر التشريع والاحكام التكليفية نسخ ، فهو في الأمر التكويني والمكونات الزمانية بداء ، فالنسخ كأنه بداء تشريعي والبداء كأنه نسخ تكويني) .

الاتجاه الثاني : وهذا الاتجاه يرى حدوث التغيّر في ذات العلم لا في ذات المعلوم ، أي على عكس الاتجاه الأول ، إلّا أن هذا الاتجاه يستخدم ظاهرة التأويل في العلم نفسه ، ويمثل هذا الرأي الشيخ المجلسي حيث يفترض أن العلم الإلهي عبارة عن تسجيل معلومات في لوحين مخلوقين لله ، وهما عبارة عن سجلات ربانية تدون فيهما حوادث عالم التكون ، أحدهما اللوح المحفوظ الذي لا تغير فيه أصلاً وذلك أن جميع الأمور مدوّنة في هذا اللوح مع كل الظروف المقتضية للعمل بحيث تؤخذ الظروف هنا بنظر الاعتبار ، كوجود زيد من الناس مثلاً ، وما يتعلّق به من أمور كأعماله المختلفة ، ثم تفصيلات هذه الأمور ، إضافة إلى أجله وكيف يكون ،

والمؤثرات التي تتحكم في ذلك ، كل هذه الأمور مدوّنة في هذا السجل الرباني (اللوح المحفوظ) وهذه تجري وفق ذلك التدوين بلا تغيّر أو تبدل ، ويسمى هذا اللوح أيضاً لوح القضاء .

أما اللوح الثاني فهو لوح المحو والإثبات أو هو لوح القدر ، وفي هذا السجل تؤخذ مقتضيات الأمور دون الموانع ، فإذا ثبت فيه شيء فإنه يثبت بمقتضياته دون موانعه فإذا حصل المانع انمحى ذلك الشيء ، ودوّن شيء آخر غيره لحكم كثيرة ، ويضرب لنا مثلاً لذلك فيقول : (أن يكتب في هذا اللوح مثلاً أن عمر زيد خمسون سنة ومعناه أن مقتضى الحكمة أن يكون عمره كذا إذا لم يفعل ما يقتضي طوله أو قصره ، فإذا وصل الرحم مثلاً يمحي الخمسون ويكتب مكانه ستون وإذا قطعها (اي الرحم) يكتب مكانه أربعون ، وفي اللوح المحفوظ أنه يصل وعمره ستون ، كما أن الطبيب الحاذق إذا اطلع على مزاج شخص يحكم بأن عمره بحسب هذا المزاج يكون ستين سنة ، فإذا شرب سماً مات ، أو قتله إنسان فنقص من ذلك أو استعمل دواء قوي مزاجه به فزاد عليه ، لم يخالف قول الطبيب والتغير الواقع في هذا اللوح يسمى بالبداء .

الاتجاه الثالث : وهذا الاتجاه يذهب إلى أن البداء هو تغيّر في العلم دون تأويل لطبيعة العلم ، ولكن من هو الذي يتغيّر علمه ؟ وهل هذا التغير هنا بالنسبة للخالق أو للمخلوقين؟ . يرى هذا الاتجاه أن العلم المتغير ليس علم الخالق ، بل هو ما دونه ، ولإيضاح ذلك يسلك سبيلين :

أ) أحدهما كلامي .
ب) والآخر فلسفي .

يمثل الجانب الكلامي الشيخ الطوسي في كتابه (الغيبة) حيث يذهب إلى أن التغيّر يقع في علم الناس لا في علم الله أي أن الذي يتغيّر هو علم الإنسان ، حيث يكون البداء هنا بمعنى (الإبداء) أي ظهور أمر للإنسان لم

يكن يتوقعه ، أو يظهر منه خلاف ما كان يتوقع ، فيتغير علم الإنسان تبعاً لتغير طبيعة وقوع الفعل ، ولهذا يذهب الطوسي إلى تثبيت قاعدة الشرط التي يترتب عليها تغيّر العلم الإنساني ، حيث أن الشيء الخاضع لذلك الشرط لا يحيط الإنسان به علماً إلاّ عند وقوعه ، لذا فهو لا يملك موقفاً ثابتاً إزاء هذه الأمور بطبيعة عدم إحاطته بأسبابها ، ولما كان البداء في اللغة هو الظهور (فلا يمتنع أن يظهر لنا من أفعال الله ما كنا نظن خلافه ، أو نعلم ولا نعلم شرطه) .

وهكذا يربط الشيخ الطوسي ظاهرة البداء بمفهوم الشرطية في تحقق الأمر ، بحيث لا يمكن للفرد أن يحيط علماً بالأسباب الموجبة للحادث وكيف تتم ، فالتصوّر الذي يكونه الإنسان إزاء الأمر إنما يتحدد في الأسباب العامة دون معرفة شروط تلك الأسباب وطبيعة وجوذها فيظهر له خلاف ما كان يتصور لعدم إطلاعه على طبيعة ورود تلك الشروط . ويتابع هذا الجانب الشرطي من المحدثين الشيخ البلاغي ، حيث يربط ظاهرة البداء بالقانون السببي في تحقق الأمور الممكنة لتؤدي دورها نحو غاياتها التامّة ، فالله (هو الخالق للسبب والمسبب والجاعل للتسبيب وبيده الأسباب وتسبيباتها في وجودها وبقائها وتأثيراتها وتمكين بعضها على بعض فقد يعدم السبب وقد يبطل تأثيره ، وقد يمنع تأثيره بسبب آخر ، وقد يعدم ما يحسب الناس أنه موضوع القانون المقرر ويقيم غيره مقامه ، وهذا هو مقام «البداء» والمحو والإثبات وهو ـ جلَّ شأنه ـ عالم منذ الأزل بما يؤدي إليه مشيئته من المحو والإثبات وهذا العلم هو أم الكتاب) .

وهكذا يتحقق الأمر بتحقق أسبابه دون مانع ، إذ إن أسباب الأمور الممكنة معلّلة ومشروطة بأسباب أخرى ولا يتحقق الأمر الممكن إلاّ بتحقق كامل استعداداته الموجبة له ، ولا يمكن الإحاطة بكل تلك الأسباب والشروط من قبل الإنسان ، فالعلم الإنساني هنا عرضة للتغير ما دام العلم غير ثابت بالنسبة إليه ، ومن هنا يكون البداء حالة ظهوره لم تكن في علم الأفراد بحيث يظهر الله المشيئة ما هو مخفى على الناس وعلى خلاف ما يحسبون وإلى نفس

الاتجاه أيضاً ذهب السيد الطباطبائي ، ليربط البداء بظاهره السببية في الأمور الممكنة ، ويؤكد أن البداء عبارة عن عدم إدراك الفرد لموانع الأسباب المؤدية للأمر إلّا حال وجودها .

أما الجانب الفلسفي من الاتجاه الثالث فيمثله صدر الدين الشيرازي ، الذي يرى أن التغيّر يقع في علم (النفس الفلكية) في مرتبة الخيال ، وبأن علومها جزئية متغيرة وفق اكتمال الشروط التامّة للفعل الخاضع لأسباب معيّنة .

وبما أن هذا الجانب الفلسفي الذي يمثّله فيلسوف الإسلام آية الله الشيرازي قد سبقنا إلى عرضه وتبسيطه عبد الزهراء البندر في كتابه (نظرية البداء ـ عند صدر الدين الشيرازي) .

لذا نحيل قارئنا الكريم على الكتاب المذكور إن كان يريد التوسّع في معرفة هذا الجانب الفلسفي من الاتجاه الثالث .

المعاني الصحيحة
للبداء عند العلماء

لقد ذكرنا لقارئنا الكريم فيما سبق الجانب الاصطلاحي للبداء على نحو الإجمال وتجدر بنا الإشارة هنا إلى إيراد ما ذكره علمائنا الأكابر من معاني صحيحة للبداء على الوجه التفصيلي لكي تتكون عنده معرفة شاملة بموضوع البداء ، وإليك ما أردنا بيانه فيما يلي :

١ ـ ما ذكره الفيلسوف النحرير ، والمحقق الخبير السيد العماد محمد باقر الداماد ، في نبراس الضياء ، قال : البداء منزلته في التكوين ، منزلة النسخ في التشريع ، فما في الأمر التشريعي ، والأحكام التكليفية نسخ فهو في الأمر التكويني والمكوّنات الزمانية بداء ، فالنسخ كأنه بداء تشريعي ، والبداء كأنه نسخ تكويني ، ولا بداء في القضايا الخاصة بالنسبة إلى جناب القدس الحق والمفارقات المحضة الملائكة القدسية ، وفي متن الدهر الذي هو ظرف مطلق الحصول القار والثبات البات ، ووعاء عالم الوجود كله ، وإنما البداء في القدر وفي امتداد الزمان الذي هو أفق التقضّي والتحدّد ، وظرف التدريج والتعاقب ، وبالنسبة للكائنات الزمانية ومن في عالم الزمان والمكان ، وإقليم المادة والطبيعة ، وكما حقيقة التنسّخ عند التحقيق انتهاء الحكم التشريعي ، وانقطاع استمراره لا رفعه وارتفاعه عن وعاء الواقع فكذا حقيقة البداء عند الفحص البالغ إثبات استمرار الأمر التكويني ، وانتهاء اتصال

الإفاضة ، ومرجعه إلى تحديد زمان الكون وتخصيص وقت الإفاضة لا أنه ارتفاع المعلول الكائن عن وقت كونه وبطلانه في حدّ حصوله .

٢ ـ ما ذكره بعض المحققين في شرحه على الكافي ، وتبعه المحدث الكاشاني في الوافي وهو : أنّ القوى المنطبعة الفلكية لم تحط بتفاصيل ما سيقع من الأمور دفعة واحدة لعدم تناهي تلك الأمور ، بل إنما ينتقش فيها الحوادث شيئاً فشيئاً ، وجملة فجملة مع أسبابها وعللها على نهج مستمر ، ونظام مستقر ، فإن ما يحدث في عالم الكون والفساد إنما هو من لوازم حركات الأفلاك المسخّرة لله ونتائج بركاتها ، فهي تعلم أن كلما كان كذا كان كذا فمهما حصل لها العلم بأسباب حدوث أمر ما في هذا العالم حكمت بوقوعه فيه فينتقش فيها ذلك الحكم ، وربما تأخّر بعض الأسباب الموجب لوقوع الحوادث على خلاف ما يوجبه بقيّة الأسباب لولا ذلك السبب ولم يحصل لها العلم بذلك بعد لعدم اطلاعها على سبب ذلك السبب ، ثم لما جاء أوانه واطلعت عليه حكمت بخلاف الحكم الأول ، فينمحي عنها نقش الحكم السابق ويثبت الحكم الآخر مثلاً لما حصل لها العلم بموت زيد بمرض كذا في ليلة كذا لأسباب تقتضي ذلك ، ولم يحصل لها العلم بتصدُّقه الذي سيأتي به قبل ذلك الوقت لعدم اطلاعها على أسباب التصدّق بعد ، ثم علمت به وكان موته بتلك الأسباب مشروطاً بأن لا يتصدّق فتحكم أولاً بالموت ، وثانياً بالبرء ، وإذا كانت الأسباب لوقوع أمر أو لا وقوعه متكافئة ولم يحصل لها العلم برجحان أحدهما بعد لعدم مجيء أوان سبب ذلك الرجحان بعد كان لها التردد في وقوع ذلك الأمر أو لا وقوعه فينتقش فيها الوقوع تارة واللا وقوع أخرى ، فهذا هو السبب في البداء والمحو والإثبات والتردد ، وأمثال ذلك في أمور العالم ، فإذا اتّصلت بتلك القوى نفس النبي (ص) أو الإمام (ع) فرأى فيها بعض تلك الأمور فله أن يخبر بما رآه بعين قلبه ، أو شاهده بنور بصيرته ، أو سمعه بأذن قلبه ، وأما نسبة ذلك كلّه إلى الله سبحانه فلأن كل ما يجري في العالم الملكوتي إنما يجري بإرادة الله تعالى ، بل

فعلهم بعينه فعل الله ، إنّهم لا يعصون ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، إذ لا داعي لهم إلى الفعل إلاّ إرادة الله عزَّ وجلَّ لاستهلاك إرادتهم في إرادته تعالى ، ومثلهم كمثل الحواس للإنسان كلما هم بأمر محسوس امتثلت الحواس لما هم به ، فكل كتابة تكون في هذه الألواح والصحف فهي أيضاً مكتوب لله تعالى عزَّ وجلَّ بعد قضائه السابق المكتوب بقلمه الأول ، فيصح أن يوصف الله نفسه بأمثال ذلك بهذا الاعتبار ، وإن كان مثل هذه الأمور تشعر بالتغير والنسوخ ، فهو تعالى منزّه عنه ، فإن كلما وجد أو سيوجد فهو غير خارج عن عالم ربوبيته .

٣ ـ ما يحكي عن الفاضل المدقق الميرزا رفيعا وهو : أنّ الأمور كلّها عامها وخاصّها ومطلقها ومقيّدها ، ومنسوخها وناسخها ، ومفرداتها ومركباتها وإخباراتها وإنشاءاتها بحيث لا يشذّ عنها شيء منتقشة في اللوح والفايض منه على الملائكة والنفوس السفليّة والعلوية قد يكون الأمر العام أو المطلق أو المنسوخ حسبما تقتضيه الحكمة الكاملة من الفيضان في ذلك الوقت ويتأخّر المبيّن إلى وقت تقتضي الحكمة فيضانه فيه ، وهذه النفوس العلويّة وما يشبهها يعبّر عنها بكتاب المحو والإثبات والبداء عبارة عن هذا التغيّر في ذلك الكتاب من إثبات ما لم يكن مثبتاً ومحو ما يثبت فيه ، والروايات كلّها تنطبق عليه ، وبملاحظة جميعها يهتدي إليه .

٤ ـ ما ذكره سيدنا المرتضى في جواب مسائل أهل الري وهو أن المراد بالبداء النسخ نفسه وادعى أنه ليس بخارج عن معناه اللغوي ، وقريب منه ما ذكره الشيخ في العدّة إلاّ أنه صرّح بأنّ اطلاقه على النسخ على ضرب من التوسّع والتجوّز ، وحمل الأخبار عليه ، ويمكن إرجاعه إلى المعنى الأول .

٥ ـ ما ذكره الصدوق في كتاب التوحيد حيث قال : ليس البداء كما تظنّه جهّال الناس بأنه بداء ندامة تعالى الله عن ذلك علّواً كبيراً ، ولكن يجب علينا أن نقر لله عزَّ وجلَّ بأن له البداء ، معناه أن له أن يبدأ بشيء من خلقه

فيخلقه قبل كلّ شيء ، ثم يعدم ذلك الشيء ، ويبدأ بخلق غيره ، ويأمر بأمر ثم ينهى عن مثله ، أو ينهى عن شيء ، ثم يأمر بمثل ما ينهى عنه ، وذلك بمثل نسخ الشرائع وتحويل القبلة وعدّة المتوفي عنها زوجها ، ولا يأمر الله عباده بأمر في وقت إلاّ وهو يعلم أنّ الصلاح لهم في ذلك الوقت في أن يأمرهم بذلك ، ويعلم في وقت آخر لهم الصلاح في أن ينهاهم عن مثل ما أمرهم به ، فإذا كان ذلك الوقت أمرهم بما يصلحهم فمن أقرّ بأن لله عزّ وجلّ أن يفعل ما يشاء ، ويؤخر ما يشاء ، ويأمر بما يشاء كيف يشاء فقد أقر بالبداء وما عظّم الله بشيء أفضل من الإقرار بأن له الخلق والأمر والتقديم والتأخير ، وإثبات ما لم يكن ، ومحو ما كان والبداء هو ردّ على اليهود لأنهم قالوا : إن الله قد فرغ من الأمر فقلنا إن الله كل يوم هو في شأن ، يحيي ويميت ويرزق ويفعل ما يشاء . والبداء ليس من ندامة ، وإنما هو ظهور أمر تقول العرب : بدا لي الشخص في طريقي أي ظهر ، قال الله تعالى : ﴿ **وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون** ﴾ أي ظهر لهم ، ومتى ظهر لله تعالى ذكره من عبده صلة لرحمه زاد في عمره ، ومتى ظهر له منه قطيعة رحم نقّص من عمره، ومتى ظهر له من عبده اتيان الزنا نقص من عمره ورزقه ومتى ظهر له منه التعفف عن الزنا زاد في رزقه وعمره ، ومن ذلك قول الصادق (ع) ما بدأ لله كما بدأ له في إسماعيل ابني ، يقول : ما ظهر له أمر كما ظهر له في إسماعيل ابني إذ اخترمه قبلي ليعلم بذلك بأنه ليس بإمام بعدي . وقد روى لي من طريق أبي الحسين الأسدي في ذلك شيء غريب وهو أنه : روي أن الصادق (ع) قال : ما بدا لله بداء كما بدا له في إسماعيل أبي إذ أمر أباه بذبحه ، ثم فداه بذبح عظيم .

٦ ـ ما ذكره شيخ الطائفة في كتاب العدة حيث قال ـ بعد إيراد بعض أخبار البداء ـ : الوجه في هذه الأخبار ـ إن صحّت ـ أنه لا يمتنع أن يكون الله تعالى قد وقّت هذا الأمر في الأوقات التي ذكرت ، فلما تجدّد ما تجدّد تغيّرت المصلحة ، واقتضت تأخيره إلى وقت آخر ، وكذلك فيما بعد ويكون الوقت

الأول وكلّ وقت يجوز أن يؤخر مشروطاً بأن لا يتجدّد ما يقتضي المصلحة تأخيره إلى أن يجيء الوقت الذي لا يغيّره شيء فيكون محتوماً ، وعلى هذا يتأوّل ما روى في تأخير الأعمال عن أوقاتها والزيادة فيها عند الدعاء ، وصلة الأرحام ، وما روي في تنقيص الأعمار عن أوقاتها إلى ما قبله عند فعل الظلم ، وقطع الرحم وغير ذلك ، وهو تعالى وإن كان عالماً بالأمرين فلا يمتنع أن يكون أحدهما معلوماً بشرط والآخر بلا شرط ، وهذه الجملة لا خلاف فيها بين أهل العدل ، وعلى هذا يتأوّل أيضاً ما روي من أخبارنا المتضمنة للفظ البداء وتبيّن أن معناها النسخ على ما يرى به جميع أهل العدل فيما يجوز فيه النسخ أو تغيّر شروطها إن كان طريقها الخبر عن الكلمة ، لأن البداء في اللغة هو الظهور ، فلا يمتنع أن يظهر لنا من أفعال الله تعالى ما كنّا نظن خلافه ، أو يعلم شرطه ، فمن ذلك ما رواه سعد بن عيسى عن البزنطي ، عن أبي الحسن الرضا (ع) قال : قال علي بن الحسين ، وعلي بن أبي طالب قبله ، ومحمد بن علي ، وجعفر بن محمد : كيف لنا بالحديث مع هذه الآية : ﴿ **يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أمّ الكتاب** ﴾ فأما من قال : إن الله تعالى لم يعلم الشيء إلّا بعد كونه فقد كفر وخرج عن التوحيد . وقد روى سعد بن عبدالله عن أبي هاشم الجعفري قال : سأل محمد بن صالح الأرمني أبا محمد العسكري (ع) عن قول الله عزَّ وجلَّ : ﴿ **يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أمّ الكتاب** ﴾ فقال أبو محمد عليه السلام : وهل يمحو إلّا ما كان ويثبت ما لم يكن؟ فقلت في نفسي : هذا خلاف ما يقول هشام ، لأنه لا يعلم الشيء حتى يكون ، فنظر إليَّ أبو محمد عليه السلام فقال : تعالى الجبار العالم بالأشياء قبل كونها » الحديث .

٧ ـ ما صار إليه بعض الفضلاء من أنّ البداء عبارة عن القضاء السابق ـ تعويلاً على كلام ابن الأثير في النهاية ـ وهو بعيد لا تنطبق الأخبار عليه .

٨ ـ ما يحكى عن الفاضل المحقق ابن أبي الجمهور الاحسائي في

حواشي غوالي اللاءلي وهو موقوف على تمهيد مقدمة وهي : انّ القضاء هو الأمر الكلي الواقع في العالم العقلي المسمى بعالم الملكوت ، وعالم الغيب ، وعالم الأمر ، واللوح المحفوظ ، والقدر : هو تفصيل ذلك القضاء الواقع في الوجود الخارجي ، والعالم الحسّي المسمى بعالم الملك ، وعالم التقدير ، والفرق بين الأمرين لا يكاد يشتبه وبهذا يظهر معنى قول أمير المؤمنين عليه السلام لما مرّ يوماً بجنب حائط فأسرع في المشي فقيل له : أتفرّ يا أمير المؤمنين من قضاء الله تعالى؟ فقال عليه السلام : أفرّ من قضاء الله إلى قدره ويتضح أن مراده أني أفرّ من ذلك الكلي المشروط بشرائطه إلى ما هو مقدّر تابع للشرائط على ما يقتضيه العلم الإلّهي المتعلّق به ، ويتضح معنى قول النبي (ص) : فرغ الله من أربع الخلق والقضاء والرزق والأجل ، فلما سمع اليهود هذا قالوا : فإنَّ الله تعالى الآن معطّل لأنه قد فرغ من الأمور كلّها ، فقال عليه السلام : كلاّ ليس الأمر كذلك فإنه يوصل القضاء إلى القدر ، ومعناه ، أنّ تفصيل الجزئي يجب مطابقته للأمر الكلي ، ووقوعه على ترتيبه ، ويسمى « الأول » علم القضاء و « الثاني » علم القدر ، ويجوز الفراغ من القضاء الإلّهي ، ولكن لا يجوز الفراغ من القدر التابع له ، فإنّ إتصال القضاء إلى القدر وقوع القدر بموجب القضاء ، وهو فعله ، وهو شأنه بحكم قوله تعالى : ﴿ كلّ يوم هو في شأن ﴾ والقدر هو موطن البداء ، وتلك التجدّدات والتقضّيات نتائجه .

٩ ـ ما حكي عن الفاضل الطيبي في شرح مشكاة المصابيح ، وهو من أعلام المخالفين قال : إذا علم الله تعالى أن زيداً يموت سنة خمس مائة استحال أن يموت قبلها أو بعدها فاستحال أن تكون الآجال التي عليها علم الله أن تزيد أو أن تنقص فتعيّن تأويل زيادة العمر ونقصانه الواردين في الأخبار النبوية أنهما بالنسبة إلى ملك الموت أو غيره ممن وكّل بقبض الأرواح وأمر بالقبض بعد آجال محدودة فإنه تعالى بعد أن يأمره بذلك أو يثبته في اللوح المحفوظ ينقص منه أو يزيد على ما سبق به علمه في كل شيء ، وهو معنى

قـوله تعـالى : ﴿ يمحو الله مـا يشاء ويثبت وعنـده أم الكتاب ﴾ وعلى مـا ذكره يحمل قوله تعالى : ﴿ ثم قضى أجلاً وأجل مسمى عنـده ﴾ فالإشـارة بالأجـل الأول إلى ما في اللوح المحفوظ وما عنـد ملك الموت ، وبالأجـل الثاني إلى قوله : ﴿ وعنده أم الكتاب ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فإذا جاء أجلهم لا يـستأخـرون ساعة ولا يـستقدمون ﴾ .

١٠ ـ ما اختاره العالم العلم الربـاني المحقق الثالث ، والعـلامة الثـاني المحدث الفاضل المجلسي في الأربعين ، ومرآة العقول وغيرها ، وهو أوضح الطرق وأقربها لانطباق جميع الأخبار الواردة في ذلك عن الأئمة الأطهار عليهم صلوات الله الملك الغفـار وهو أنّهم عليهم السـلام إنما بـالغوا في البـداء رداً على اليهود الذين يقولون إنَّ الله قد فرغ من الأمر وعلى النظّام وبعض المعتزلة القـائلين أنّ الله خلق الموجـودات دفعة واحـدة على ما هي عليـه الآن معـادن ونبات ، وحيواناً وإنساناً ، ولم يتقدَّم خلق آدم على خلق أولاده ، والتقدُّم إنَّما يقـع في ظهورهـا ، لا في حدوثهـا ووجودهـا ، وإنما أخـذوا هذه المقـالة من أصحـاب الكمـون والبـروز من الفـلاسفـة ، وعلى بعض الفـلاسفـة القـائلين بالعقول والنفوس الفلكية وبأنّ الله تعالى لم يؤثّر حقيقة إلاَّ في العقـل الأول ، فهم يعـزلونـه تعالى عن ملكـه وسلطانه وينسبـون الحوادث إلى هؤلاء ، وعلى آخرين منهم قالوا : إنّ الله سبحانه أوجد جميع مخلوقاته دفعة واحدة وهويّة لا ترتيب فيها باعتبار الصدور ، بل إنما ترتيبها في الأزمان فقط كما إنّه لا تـرتب الأجسام المجتمعة زماناً ، وإنما ترتيبها في المكان فقط فنفـوا عنه كـلّ ذلك ، وأثبتـوا أنّ الله تعالى كـلّ يوم في شـأن من إعدام شيء وإحـداث آخر وإمـاتـة شخص وإحياء آخر إلى غير ذلك ، لئـلا يترك العبـاد التضرُّع إلى الله ومسـألته وطاعته والتقرُّب إليه بما يصلح أمور دنياهم وعقباهم ، وليرجعوا عنـد التصدُّق على الفقراء ، وصلة الأرحام ، وبر الوالدين ، والمعروف والإحسان ما وعدوا عليها من طول العمر وزيادة الرزق وغير ذلك .

قـال العلامـة الحجة السيـد عبـدالله شبـر مـوضحـاً معنى « البـداء » مـا

حرفيّته : ان البداء المنسوب إليه تعالى معناه أن يبدو لـه في الشيء فيثبته بعـد عـدمه ، أو عكس ذلـك مختاراً مـع علمـه بـأصله ، وعلمـه بـأنـه سيفعله في المستقبـل لأغـراض ومصـالـح وغـايـات سبق العلم بهـا على التفصيـل ، ولا يحدث له من معلومها شيء لم يكن معلوماً له سابقاً لئلا يلزم نسبة الجهل إليه تعالى كما نطقت به الأخبـار ، ففي الصحيح عن الصـادق (ع) قال : مـا بدأ الله في شيء إلّا كان في علمه قبل أن يبدو لـه ، وعنه (ع) قـال : إنّ الله لم يبـدو له من جهـل ، فالبـداء منه سبحـانه لمحـو المثبت وإثبـات غيـر المثبت مسبـوق بعلمه الأزلي ، وليس البـداء مخصـوصـاً بـالمحـو فقط ، بـل يشمـل الإثبات كما دلّت عليه الآية والرواية ، وبـالجملة فمرجـع البداء المـذكور إلى أنّه سبحانه مختار على الإطلاق في عامة الأفاعيل والتكوينات مستمر التصـرف والإرادات في كلّ الأمور وكافة الأحـوال يشـأون فعلـهـا وتركهـا ، وأحكامهـا ونقضها وتقديمها وتأخيـرها ، جليلهـا وحقيرهـا ، وقبيلها ودبيـرها ، ولهـذا لم يعبد الله ولم يعظم بشيء مثل البداء ، لأن مدار استجابـة الدعـاء والرغبـة إليه سبحانه والرهبة منه ، وتفويض الأمور إليه ، بين الخـوف والرجـاء ، والتصدُّق والرحم والأعمال الصالحة وأمثالها من أركان العبوديّة كلها على البداء .

١١ ـ أنّه ترجيح أحد المتقابلين ، والحكم بوجوده بعد تعلّق الإرادة بهـا تعلقاً غير حتمي لرجحان مصلحته وشروطه على مصلحة الآخـر وشروطـه ومن هذا القبيل استجابة الداعي ، وتحقيق مطالبه ، وتطويـل العمر بصلة الـرحم ، وإرادة إبقاء قوم بعـد إرادة إهلاكهم ، وقـد قال مـولانا الـرضا (ع) لـسليمـان المروزي وهو كان منكراً للبداء وطلب منه (ع) مـا يدلّ عليـه من القرآن قـوله تعالى لنبيه (ص) : ﴿ فتول عنهم فما أنت بملوم ﴾ ثم بدأ الله تعالى فقـال : ﴿ وذكّر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾ يريد (ع) أنه أراد إهلاكهم لعلمه بأنّهم لا يؤمنـون ، وأراد بقائهم لعلمـه بأنـه يخرج من أصـلابهم المؤمنون ، فـرجّح بقائهم فحكم به تحقيقاً لمعنى الإيمان .

هـذا ما دوّنـه أهل العلم من المعـاني الصحيحـة التي يمكن أن ينـطبق

بعضها إن لم يكن كلها على كلمة البداء في مفهومها الاصطلاحي وكنت أتصور أن مفهوم البداء لم يكن من الصعوبة بمكان إلاّ أن الذي ظهر لي من خلال مطالعاتي في المصادر الكثيرة التي تعرّضت للبداء خلاف ذلك فقد بان لي أن مفهوم البداء من المفاهيم الإسلامية الدقيقة ولهذا تعددت المذاهب حول تفسيره واختلفت فيه آراء المسلمين حتى مال بعضهم إلى إنكاره والقول بعدمه وجعله من العقائد الباطلة التي لا تجوز على الله تعالى وبالغ منكروه في توجيه النقد والتشنيع على من يقول به من دون أن يتعمّقوا في دراسة معانيه .

وزعم جماعة أن القول بالبداء قول قد انفردت به الشيعة الإماميّة دون غيرهم من فرق المسلمين ولكن الواقع أن القول بالبداء ليس من مختصّات الشيعة الإمامية بل قال به جمهرة من أهل التسنن أيضاً وإنما اختلف الجميع في تفسيره كما تقدم وعلى هذا يكون النزاع في ثبوت البداء ونفيه بين المسلمين نزاع لفظي ولكن ليس هناك ثمة شك في أن للبداء معاني بعضها يمتنع على الله تعالى فمن جملتها على سبيل المثال (البداء) الذي هو بمعنى ظهور الشيء بعد خفائه وحصول العلم به بعد الجهل وهو الذي مرّ بقارئنا الكريم فيما سبق عند تعريفاتنا للبداء بمعناه اللغوي ، فإن هذا مما أجمعت الأمة الإسلامية على بطلانه وعدم جوازه على الله تعالى لأنه ينسب الجليل جلَّ وعلا إلى الجهل وهو سبحانه منزَّه عنه .

ومن نسب ذلك إلى الإمامية فقد افترى عليهم كذباً لأنّهم براء من ذلك براءة ذئب يوسف من يوسف ، لكن البداء (وفق مفهوم الإمامية يعني الإظهار بعد الإخفاء) مثاله : أن يعتقد المرء استناداً إلى بعض المؤشرات حدوث شيء ما ثم يظهر حدوث ما يخالف هذا الشيء فيعبّر عنه بالبداء مجازاً للمشابهة الواقعة بينه وبين البداء بمفهومه العرفي فيمن كان يريد فعل شيء ثم بدا له فعل خلافه .

الدليل القرآني
على ثبوت البداء

لقد ورد في القرآن الكريم جملة من الآيات الكريمة الدالّة على ثبوت البداء وقد تناول بعضها الحديث عنه في جانبه اللغوي بينما تناول البعض الآخر منها البداء في جانبه الاصطلاحي وعلى سبيل المثال لا الحصر نذكر لقارئنا الكريم طائفة منها فيما يلي :

الآية الأولى :

قوله تعالى : ﴿ **يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب** ﴾ [الرعد/٣٨] .

قوله تعالى : ﴿ **يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب** ﴾ محو الشيء هو إذهاب رسمه وأثره يقال : محوت الكتاب إذا أذهبت ما فيه من الخطوط والرسوم قال تعالى: ﴿**ويمح الله الباطل ويحق الحق بكلماته**﴾ [الشورى/٢٤] أي يذهب بآثار الباطل كما قال : ﴿ **فأما الزبد فيذهب جفاء** ﴾ وقال : ﴿ **وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة** ﴾ [الإسراء/١٢] أي أذهبنا أثر الإبصار من الليل فالمحو قريب المعنى من النسخ يقال : نسخت الشمس الظل أي ذهبت بأثره ورسمه .

وقد قوبل المحو في الآية بالإثبات وهو إقرار الشيء في مستقره بحيث لا يتحرك ولا يضطرب يقال : أثبت الوتد في الأرض إذا ركزته فيها بحيث لا

يتحرك ولا يخرج من مركزه فالمحو هو إزالة الشيء بعد ثبوته برسمه ويكثر استعماله في الكتاب .

ووقوع قوله : ﴿ يمحو الله ما يشاء ويثبت ﴾ بعد قوله : ﴿ لكل أجل كتاب ﴾ اتصاله به من جانب وبقوله : ﴿ وعنده أم الكتاب ﴾ من جانب ظاهر في أن المراد محو الكتب وإثباتها في الأوقات والآجال فالكتاب الذي أثبته الله في الأجل الأول إن شاء محاه في الأجل الثاني وأثبت كتاباً آخر فلا يزال يمحي كتاب ويثبت كتاب آخر .

وإذا اعتبرنا ما في الكتاب من آية وكل شيء آية صح أن يقال لا يزال يمحو آية ويثبت آية كما يشير إليه قوله : ﴿ ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ﴾ وقوله : ﴿ وإذا بدّلنا آية مكان آية ﴾ [النحل/١٠١] .

فقوله : ﴿ يمحو الله ما يشاء ويثبت ﴾ على ما فيه من الإطلاق يفيد فائدة التعليل له (لكل أجل كتاب) والمعنى أن لكل وقت كتاباً يخصّه فاختلاف الكتب واختلاف الأوقات والآجال إنما ظهر من ناحية اختلاف التصرف الإلٰهي بمشيئته لا من وجهة اختلافها في أنفسها ومن ذواتها بأن يتعيّن لكل أجل كتاب في نفسه لا يتغير عن وجهه بل الله سبحانه هو الذي يعيّن ذلك بتبديل كتاب مكان كتاب ومحو كتاب وإثبات آخر .

وقوله : ﴿ وعنده أم الكتاب ﴾ أي أصله فإن الأم هي الأصل الذي ينشأ منه الشيء ويرجع إليه ، وهو دفع للدخل وإبانة لحقيقة الأمر فإن اختلاف حال الكتاب المكتوب لأجل المحو والإثبات أي تغيّر الحكم المكتوب والقول المقضي به حيناً بعد حين ربما أوهم أن الأمور والقضايا ليس لها عند الله سبحانه صورة ثابتة وإنما يتبع حكمة العلل والعوامل الموجبة له من خارج كأحكامنا وقضايانا معاشر ذوي الشعور من الخلق أو أن حكمه جزافي لا تعين له في نفسه ولا مؤثر في تعينه من خارج كما ربما يتوهم أرباب العقول البسيطة أن الذي له ملك ـ بكسر اللام ـ مطلق وسلطنة مطلقة له أن يريد ما يشاء ويفعل ما يريد على حرية مطلقة من رعاية أي قيد وشرط وسلوك أي نظام أو لا

نظام في عمله فلا صورة ثابتة لشيء من أفعاله وقضاياه عنده ، وقد قال تعالى : ﴿ ما يبدل القول لديَّ ﴾ [ق/٢٩] وقال : ﴿وكل شيء عنده بمقدار ﴾ [الرعد/٨] إلى غير ذلك من الآيات .

فدفع هذا الدخل بقوله : ﴿ وعنده أم الكتاب ﴾ أي أصل جنس الكتاب والأمر الثابت الذي يرجع إليه هذه الكتب التي تمحي وتثبت بحسب الأوقات والآجال ولو كان هو نفسه تقبّل المحو والإثبات لكان مثلها لا أصلاً لها ولو لم يكن من أصله كان المحو والإثبات في أفعاله تعالى إما تابعاً لأمور خارجة تستوجب ذلك فكان تعالى مقهوراً مغلوباً للعوامل والأسباب الخارجية مثلنا والله يحكم لا معقب لحكمه .

وإما غير تابع لشيء أصلاً وهو الجزاف الذي يختل به نظام الخلقة والتدبير العام الواحد بربط الأشياء بعضها ببعض جلت عنه ساحته ، قال تعالى : ﴿ وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلاّ بالحق ﴾ [الدخان/٣٩] .

فالملخص من مضمون الآية أن لله سبحانه في كل وقت وأجل كتاباً أي حكماً وقضاء وأنه يمحو ما يشاء من هذه الكتب والأحكام والأقضية ويثبت ما يشاء أي يغير القضاء الثابت في وقت فيضيع في الوقت الثاني مكانه قضاء آخر لكن عنده بالنسبة إلى كل وقت قضاء لا يتغير ولا يقبل المحو والإثبات وهو الأصل الذي يرجع إليه الأقضية الأخر وتنشأ منه فيمحو ويثبت على حسب ما يقتضيه هو .

ويتبين بالآية أولاً : أن حكم المحو والإثبات عام لجميع الحوادث التي تداخله الآجال والأوقات وهو جميع ما في السماوات والأرض وما بينهما ، قال تعالى : ﴿ ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلاّ بالحق وأجل مسمى ﴾ [الأحقاف/٣] .

وذلك لإطلاق قوله : ﴿ يمحو الله ما يشاء ويثبت ﴾ واختصاص المورد بآيات النبوة لا يوجب تخصيص الآية لأن المورد لا يخصص .

وبذلك يظهر فساد قول بعضهم : إن ذلك في الأحكام وهو النسخ وقول ثان : إن ذلك في المباحات المثبتة في صحائف الأعمال يمحوها الله ويثبت مكانها طاعة أو معصية مما فيه الجزاء ، وقول ثالث : إنه محو ذنوب المؤمنين فضلاً وإثبات ذنوب للكفار عقوبة ، وقول رابع : إنه في موارد يؤثر فيها الدعاء والصدقة في المحن والمصائب وضيق المعيشة ونحوها ، وقول خامس : إن المحو إزالة الذنوب بالتوبة والإثبات تبديل السيئات حسنات ، وقول سادس : إنه محو ما يشاء الله من القرون والإثبات وإنشاء قرون آخرين بعدهم ، وقول سابع : إنه محو القمر وإثبات الشمس وهو محو آية الليل وجعل النهار آية مبصرة ، وقول ثامن : إنه محو الدنيا وإثبات الآخرة ، وقول تاسع : إن ذلك في الأرواح حالة النوم يقبضها الله فيرسل من يشاء منهم ويمسك من يشاء ، وقول عاشر : إن ذلك في الآجال المكتوبة في ليلة القدر يمحو الله ما يشاء منها ويثبت ما يشاء .

فهذه وأمثالها أقوال لا دليل على تخصيص الآية الكريمة بها من جهة اللفظ البتة وللآية إطلاق لا ريب فيه ثم المشاهدة الضرورية تطابقه فإن ناموس التغير جار في جميع أرجاء العالم المشهود ، وما من شيء قيس إلى زمانين في وجوده إلاّ لاح التغير في ذاته وصفاته وأعماله ، وفي عين الحال إذا اعتبرت في نفسها وبحسب وقوعها وجدت ثابتة غير متغيرة فإن الشيء لا يتغير عمّا وقع عليه .

فللأشياء المشهودة جهتان جهة تغير يستتبع الموت والحياة والزوال والبقاء وأنواع الحيلولة والتبدل ، وجهة ثبات لا تتغير عمّا هي عليها وهما إما نفس كتاب المحو والإثبات وأم الكتاب ، وإما أمران مترتبان على الكتابين وعلى أي حال تقبل الآية الصدق على هاتين الجهتين :

وثانياً : أن لله سبحانه في كل شيء قضاء ثابتاً لا يتغير وبه يظهر فساد ما ذكره بعضهم أن كل قضاء يقبل التغيير واستدل عليه بمتفرقات الروايات

والأدعية الدالة على ذلك والآيات والأخبار الدالة على أن الدعاء والصدقة يدفعان سوء القضاء ، وفيه أن ذلك في القضاء غير المحتوم .

هذا ما أفاده سيدنا الحجة حول تفسير الآية الكريمة ، أما دلالتها على ثبوت البداء فقد ظهرت ضمناً من خلال ما ذكر في تفسير الآية .

وعلى هذا تكون الآية الكريمة نص صريح ودليل قاطع يتجلى بها وقوع البداء .

ولقد جادت قريحة العلّامة القدير والفيلسوف الخبير شاعرنا وأديبنا الفرطوسي : بهذه المقطوعة الشعرية التي ضمنها معاني البداء وأوضح بطريقة الشعر على أن الآية الشريفة نص صريح في ذلك وإليكم يا قرّاءنا الكرام شعره :

يثبت الله ما يشاء ويمحو	كلّ شيء مقدّر في القضاء
إن هذا النّص الصريح دليل	يتجلّى به وقوع البداء
غير أنّ البداء فيه وجوه	ومعانٍ تعزي إلى العلماء
حيث لله في الخلائق علم	أزليّ محتّم الإمضاء
هو علم يبدو بدون انقلاب	منه في اللوح بعد كشف الغطاء
وثبوت البداء فيه محال	وإليه يؤول في الإنتهاء
وقضاء قد أخبر الله عنه	إنّه واقعٌ بلا استثناء
لا يصح البداء لله فيه	للزوم التكذيب للأنبياء
وقضاء معلقّ في البرايا	تقتضيه مصالح الأشياء
وهو لولا البداء واللطف فيه	أطبق اليأس فوق دنيا الرجاء
إن هذا لمذهب الحق ينمي	حين يعزي بساعة الانتماء
وبهذا النوع الأحاديث وافت	عن ثقات الأئمة الشفعاء
وبخلق الجنان والنار حقاً	وبمعراج أحمد والبداء

وصحيح البداء ما عظم الله   بشيء مثيله في العلاء
وهو أسمى ما يعبد الله فيه   من عبادات خيرة الأولياء
وهو أمر لا بدّ منه ثبوتاً   ووقوعاً بغير أيّ انتفاء
حيث فيه تصرّف في البرايا   مطلق للإلّه دون انقضاء
ودليلٌ لقدرة الله بادٍ   متراء في خلقه المترائي
فهو يحيي ما شاء منهم ويفني   وهو يبدي ما شاء بعد الخفاء
ليس فيه لله نسبة جهل   أثبتتها مزاعم الجهلاء
بعد سبق للعلم منه قديم   بمآل الحكمين في الانتهاء
حين ينفي حكم ويثبت حكم   لصلاح العباد قيد البقاء
وهو كالنسخ في الشرائع قطع   لأمور التكوين والإنشاء
ليس فيه رفع لما كان منها   سابقاً ثابتاً بلوح القضاء
غير أن الحكم المقدّر منه   كان رهن التوقيت في الابتداء
وانتهى وقته فزال لأمر   تقتضيه عوامل الإقتضاء
واقتضت حكمة المصالح حكماً   آخراً غيره بوقت البداء
وهو أمرٌ للخير والبر يدعو   ولفعل الطاعات عند الدعاء
ولأمر يزيد في الخلق والرزق   كوصل الأرحام والفقراء
وإذا قدّر الشقاء لعبدٍ   متمادٍ بالظلم والإعتداء
وتلته سعادة سبّبتها   حسنات أودت بكل شقاء
فهو فيض من لطفه وعطاء   يغمر العبد من جزيل العطاء
ورجاء لرحمة الله ممّن   كان يرجوه بعد قطع الرجاء
وجحود البداء لله سلبٌ   لاختيار الباري بغير ارعواء
مع تحديد سلطة الله قهراً   دون اطلاقها بكلّ مُشاء
حيث لو شاء سابقاً أيّ أمر   مستقرّ في علمه والقضاء
ومقال اليهود فيه ضلالٌ   وافتراء من أعظم الإفتراء
خلق الخلق دفعة ثم أمسى   في اعتزال عنهم بغير التقاء

الآية الثانية :

قوله تعـالى : ﴿ هو الـذي خلقكم من طين ثم قضى أجلاً ﴾ يشيـر إلى خلقة العالم الإنساني الصغير بعد الإشارة إلى خلق العـالم الكبير فيبين أن الله سبحانه هو الذي خلق الإنسـان ودبّر أمره بضرب الأجل لبقائـه الدنيـوي ظاهـراً فهـو محدود الـوجود بين الـطين الذي بـدأ منه خلق نـوعه وإن كـان بقاء نسله جارياً على سنّة الإزدواج والوقـاع كما قـال تعالى : ﴿ وبـدأ خلق الإنسان من طين ، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ﴾ [السجدة/٨] .

وبين الأجل المقضي الذي يقارن الموت كما قال تعـالى : ﴿ كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا يرجعون ﴾ [العنكبوت/٥٧] ومن الممكن أن يراد بالأجـل ما يقارن الرجوع إلى الله سبحانه بالبعث فـإن القرآن الكـريم ، كأنـه يعد الحيـاة البرزخيّة من الدنيا كما يفيده ظـاهر قـوله تعـالى : ﴿ قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين ، قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فاسـأل العادين قـال إن لبثتم إلاَّ قليلاً لو أنكم كنتم تعلمون ﴾ [المؤمنون/١١٤] وقال أيضاً : ﴿ ويوم تقوم السـاعة يقسم المجرمون ، ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون ، وقال الذين أُوتوا العلم والإيمـان لقد لبثتم في كتـاب الله إلى يـوم البعث فهـذا يـوم البعث ، ولكنكم كنتم لا تعلمون ﴾ [الروم/٥٦] .

وقد أبهم أمر الأجل بإتيانه منكّراً في قوله : ﴿ ثم قضى أجلاً ﴾ للدلالـة على كونه مجهـولاً للإنسـان لا سبيل لـه إلى المعرفـة به بـالتوسـل إلى العلوم العادية .

قـوله تعـالى : ﴿ وأجل مسـمى عنـده ﴾ تسمية الأجـل تعيينه فـإن العادة جرت في العهود والديون ونحو ذلك بذكر الأجل وهو المدة الضرورية أو آخر المدة باسمه ، وهو الأجل المسمى قال تعـالى : ﴿ إذا تداينتم بـدين إلى أجل

مسمى فاكتبوه ﴾ [البقرة/٢٨٢] وهو الأجل بمعنى آخر المدة المضروبة ، وكذا قوله تعالى : ﴿ من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت ﴾ [العنكبوت/٥] ، وقال تعالى في قصة موسى وشعيب : ﴿ قال إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثماني حجج فإن أتممت عشراً فمن عندك ﴾ إلى أن قال : ﴿ قال ذلك بيني وبينك أيّما الأجلين قضيت فلا عدوان عليّ ﴾ [القصص/٢٨] وهو الأجل بمعنى تمام المدة المضروبة .

والظاهر أن الأجل بمعنى آخر المدة فرع الأجل بمعنى تمام المدة استعمالاً أي إنه استعمل كثيراً (الأجل المقضي) ثم حذف الوصف واكتفى بالموصوف فأفاد الأجل معنى الأجل المقتضي ، قال الراغب في مفرداته : يقال للمدة المضروبة لحياة الإنسان (أجل) فيقال : دنا أجله عبارة عن دنو الموت ، وأصله استيفاء الأجل ، انتهى .

وكيف كان فظاهر كلامه تعالى أن المراد بالأجل والأجل المسمى هو آخر مدة الحياة لإتمام المدة كما يفيده قوله : ﴿ فإن أجل الله لآت ﴾ الآية .

فتبين بذلك أن الأجل أجلان : الأجل على إبهامه ، والأجل المسمى عند الله تعالى وهذا هو الذي لا يقع فيه تغير لمكان تقييده بقوله (عنده) وقد قال تعالى : ﴿ وما عند الله باق ﴾ [النحل/٩٦] وهو الأجل المحتوم الذي لا يتغير ولا يتبدل قال تعالى : ﴿ إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ [يونس/٤٩] .

فنسبة الأجل المسمى إلى الأجل غير المسمى نسبة المطلق المنجز إلى المشروط المعلق فمن الممكن أن يتخلف المشروط المعلّق عن التحقق لعدم تحقق شرطه الذي علّق عليه بخلاف المطلق المنجز فإنه لا سبيل إلى عدم تحققه البتة .

والتدبّر في الآيات السابقة منضمّة إلى قوله تعالى : ﴿ لكل أجل

كتاب ، يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب ﴾ [الرعد/٣٩] يفيد أن الأجل المسمّى هو الذي وضع في أم الكتاب ، وغير المسمى من الأجل هو المكتوب فيما نسمّيه بلوح المحو والإثبات ، وسيأتي إن شاء الله تعالى أن أم الكتاب قابل الانطباق على الحوادث الثابتة في العين أي الحوادث من جهة استنادها إلى الأسباب العامة التي لا تتخلف عن تأثيرها ، ولوح المحو والإثبات قابل الانطباق على الحوادث من جهة استنادها إلى الأسباب الناقصة التي ربما نسميها بالمقتضيات التي يمكن اقترانها بموانع تمنع من تأثيرها .

واعتبر ما ذكر من أمر السبب التام والناقص بمثال إضاءة الشمس ، فإنا نعلم أن هذه الليلة ستنقضي بعد ساعات وتطلع علينا الشمس فتضيء وجه الأرض لكن يمكن أن يقارن ذلك بحيلولة سحابة أو حيلولة القمر أو أي مانع آخر فتمنع من الإضاءة ، وأما إذا كانت الشمس فوق الأفق ولم يتحقق أي مانع مفروض بين الأرض وبينها فإنها تضيء وجه الأرض لا محالة .

فطلوع الشمس وحده بالنسبة إلى الإضاءة بمنزلة لوح المحو والإثبات ، وطلوعها مع حلول وقته وعدم أي حائل مفروض بينها وبين الأرض بالنسبة إلى الإضاءة بمنزلة أُم الكتاب المسمّى باللوح المحفوظ .

فالتركيب الخاص الذي لبنيّة هذا الشخص الإنساني مع ما في أركانه من الاقتضاء المحدود يقتضي أن يعمّر العمر الطبيعي الذي ربما حددوه بمائة وعشرين سنة وهذا هو المكتوب في لوح المحو والإثبات مثلاً غير أن لجميع أجزاء الكون ارتباطاً وتأثيراً في الوجود الإنساني فربما تفاعلت الأسباب والموانع التي لا نحصيها تفاعلاً لا نحيط به فأدى إلى حلول أجله قبل أن ينقضي الأمد الطبيعي ، وهو المسمى بالموت الاخترامي .

وبهذا يسهل تصوّر وقوع الحاجة بحسب ما نظم الله الوجود إلى الأجل المسمّى وغير المسمّى جميعاً ، وأن الإبهام الذي بحسب الأجل غير المسمّى لا ينافي التعيّن بحسب الأجل المسمّى ، وأن الأجل غير المسمّى والمسمّى

ربما توافقا وربما تخالفا والواقع حينئذٍ هو الأجل المسمّى البتة .

هذا ما يعطيه التدبر في قوله : ﴿ ثم قضى أجلاً وأجل مسمّى عنده ﴾ وللمفسرين تفسيرات غريبة للأجلين الواقعين في الآية .

منها : أن المراد بالأجل الأول ما بين الخلق والموت والثاني ما بين الموت والبعث ، ذكره عدة من الأقدمين وربما روي عن أبي عباس .

ومنها : أن الأجل الأول أجل أهل الدنيا حتى يموتوا ، والثاني أجل الآخرة الذي لا آخر له ، ونسب إلى المجاهد والجبائي وغيرهما .

ومنها : أن الأجل الأول أجل من مضى ، والثاني أجل من بقي من سيأتي ، ونسب إلى أبي مسلم .

ومنها : أن الأجل الأول النوم ، والثاني الموت .

ومنها : أن المراد بالأجلين واحد ، وتقدير الآية الشريفة : ثم قضى أجلاً وهذا أجل مسمّى عنده .

ولا أرى الاشتغال بالبحث عن صحة هذه الوجوه وأشباهها وسقمها يسوّغه الوقت على ضيقه ، ولا يسمح بإباحته العمر على قصره .

قوله تعالى : ﴿ ثم أنتم تمترون ﴾ من المرية بمعنى الشك والريب ، وقد وقع في الآية التفات من الغيبة إلى الحضور ، وكأن الوجه فيه أن الآية الأولى تذكر خلقاً وتدبيراً عاماً ينتج من ذلك أن الكفار ما كان ينبغي لهم أن يعدلوا بالله سبحانه غيره ، وكان يكفي في ذلك ذكرهم بنحو الغيبة لكن الآية الثانية تذكر الخلق والتدبير الواقعين في الإنسان خاصة فكان من الحري الذي يهيج المتكلم المتعجب اللائم أن يواجههم بالخطاب ويلومهم بالتجبيه كأنه يقول : هذا خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور عذرناكم في الغفلة عن حكمه ليكون ذلك حكماً عاماً ربما أمكن الذهول عمّا يقتضيه فما

عذركم أنتم في امترائكم فيه وهو الذي خلقكم وقضى فيكم اجلاً وأجل مسمى عنده؟.

هذا ما أفاده سيدنا حول تفسير الآية وهي كسابقتها في الدلالة على وقوع البداء وثبوته .

﴿ وَيَقُولُ الإنسانُ أإذَا مَا مِتُّ لَسَوفَ أُخْرَجُ حيًّا ، أوَلاَ يَذْكُرُ الإنْسَانُ أنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيئاً ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ ويقول الإنسان أإذا ما متُّ لَسوف أُخْرَجُ حيًّا ﴾ إنكار للبعث في صورة الاستبعاد ، وهو قول الكفار من الوثنيين ومن يلحق بهم من منكري الصانع بل مما يميل إليه طبع الإنسان قبل الرجوع إلى الدليل ، قيل : ولذلك نسب القول إلى الإنسان حينما كان مقتضى طبع الكلام أن يقال : ويقول الكافر ، أو : ويقول الذين كفروا (الخ) ، وفيه أنه لا يلائم قوله الآتي : (فوربك لنحشرنهم والشياطين - إلى قوله - صلياً) .

وليس ببعيد أن يكون المراد بالإنسان القائل ذلك هو الكافر المنكر للبعث وإنما عبّر بالإنسان لكونه لا يترقب منه ذلك وقد جهّزه الله تعالى بالإدراك العقلي وهو يذكر أن الله خلقه من قبل ولم يَكُ شيئاً ، فليس من البعيد أن يعيده ثانياً فاستبعاده مستبعد منه ، ولذا كرّر لفظ الإنسان حيث أخذ في الجواب قائلاً : ﴿ أوَلَمْ يذكر الإنسان أنّا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً ﴾ أي أنه الإنسان لا ينبغي له أن يستبعد وقوع ما شاهد وقوع مثله وهو غير ناسيه .

ولعلَّ التعبير بالمضارع في قوله : ﴿ ويقول الإنسان ﴾ للإشارة إلى استمرار هذا الاستبعاد بين المنكرين للمعاد والمرتابين فيه .

قوله تعالى : ﴿ أولا يذكر الإنسان أنّا خلقناه من قبل ولم يَكُ شيئاً ﴾ الاستفهام للتعجيب والاستبعاد ومعنى الآية ظاهر وقد أخذ فيها برفع الاستبعاد

بذكر وقوع المثل ليثبت به الإمكان ، فالآية نظيرة قوله تعالى في موضع آخر : **﴿ وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم قل يحييها الذي أنشأها أول مرة ﴾** إلى أن قال : **﴿ أوليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ﴾** [يس/٨١] .

فإن قيل : الاحتجاج بوقوع المثل إنما ينتج إمكان المثل والمطلوب في إثبات المعاد هو رجوع الإنسان بشخصه وعينه لا بمثله فإن مثل الشيء غيره ، قيل : إن هذه الآيات بصدد إثبات رجوع الأجساد والمخلوق منها ثانياً مثل المخلوق أولاً وشخصية الشخص الإنساني بنفسه لا ببدنه فإذا خلق البدن ثانياً وتعلّقت به النفس كان شخص الإنسان الدنيوي بعينه وإن كان البدن وهو جزء الإنسان بالقياس إلى البدن الدنيوي مثلاً لا عيناً وهذا كما أن شخصية الإنسان ووحدته محفوظة في الدنيا مدى عمره مع تغيّر البدن وتبدّله بتغيّر أجزائه وتبدّلها حالاً بعد حال والبدن في الحال الثاني غيره في الحال الأول لكن الإنسان باق في الحالين على وحدته الشخصية لبقاء نفسه بشخصها .

وإلى هذا يشير قوله تعالى : **﴿ وقالوا أإذا ضللنا في الأرض أإنا لفي خلق جديد ﴾** إلى أن يقول : **﴿ قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكّل بكم ﴾** [آلم السجدة/١١] ، أي إنكم مأخوذون من أبدانكم محفوظون لا تضلّون ولا تفتقدون .

أقول : إذا عرفت ما ذكره سيدنا حول تفسير الآية فاعلم أن الآية كأختها في الدلالة على البداء وسوف يأتي في تصريحات أئمة أهل البيت (ع) ما يؤكّد ذلك إن شاء الله تعالى .

الآية الرابعة :

قوله : **﴿ وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون ﴾** البداء والبدو بمعنى الظهور والحساب والحسبان العد ، والاحتساب الإعتداد بالشيء بمعنى

، على عده شيئاً وكثيراً ما يستعمل الحسبان والاحتساب بمعنى الظن كما ومنه قوله : ﴿ ما لم يكونوا يحتسبون ﴾ أي ما لم يكونوا يظنون لكن فرق راغب بين الحسبان والظن حيث قال : والحسبان أن يحكم لأحد النقيضين من غير أن يخطر الآخر بباله ويكون بعرض أن يعتريه فيه شك ، ويقارب ذلك الظن لكن الظن أن يخطر النقيضين بباله فيغلب أحدهما على الآخر . انتهى .

ومقتضى سياق الآية أن المراد بيان أنهم سيواجهون يوم القيامة أموراً على صفة هي فوق ما تصوره وأعظم ، وأهول مما خطر ببالهم لا أنهم يشاهدون أموراً ما كانوا يعتقدونها ويذعنون بها وبالجملة كانوا يسمعون أن لله حساباً ووزناً للأعمال وقضاء وناراً وألواناً من العذاب فيتيقنون ما سمعوه ـ على إنكار منهم له ـ على ما عهدوه من هذه الأمور الدنيا فلما شاهدوها إذ ظهرت لهم وجدوها أعظم مما كان يخطر ببالهم من صفتها فهذه الآية في وصف عذابه نظير قوله في وصف نعيم الجنة : ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين ﴾ [السجدة/١٧] .

وأيضاً مقتضى السياق أن البدو المذكور من قبيل الظهور بعد الخفاء والإنكشاف بعد الاستتار كما يشير إليه قوله تعالى : ﴿ لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد ﴾ [ق/٢٢] .

الآية الخامسة :

قال تعالى : ﴿ وبدا لهم سيئات ما كسبوا ﴾ إلى آخر الآية أي ظهر لهم سيئات أعمالهم بعدما كانت خفية عليهم فهو كقوله : ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء ﴾ [آل عمران/٣٠] .

وقوله : ﴿ وحاق بهم ما كانوا يستهزؤون ﴾ أي ونزل عليهم وأصابهم ما كانوا يستهزؤون به في الدنيا إذا سمعوه من أولياء الدين من شدائد يوم القيامة وأهواله وأنواع عذابه .

أقول : الآيتان - أعني الآية الرابعة والخامسة واضحتا الدلالة على البداء وقد أشرنا إلى الجانب اللغوي منهما ، وتقدّم فيما سبق ذكرهما عند تعريفات البداء اللغوية .

الآية السادسة والسابعة :

قال تعالى : ﴿ فَتَوَلَّ عنهُمْ فما أنت بِمَلُومٍ ۞ وذَكِّرْ فإنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ المُؤْمنينَ ﴾ [الذاريات / ٥٤ و٥٥] قوله تعالى : ﴿ فتول عنهم فما أنت بملوم ﴾ تفريع على طغيانهم واستكبارهم وإصرارهم على العناد واللجاج فالمعنى : فإذا كان كذلك ولم يجيبوك إلاّ بمثل قولهم ساحر أو مجنون ولم يزدهم دعوتك إلاّ عناداً فأعرض عنهم ولا تجادلهم على الحق فما أنت بملوم فقد رأيت المحجة وأتممت الحجة .

أقول : وهذه الآية من جملة الآيات التي استدل بها مولانا الإمام الرضا (عليه السلام) وذلك في جوابه المطوّل لسليمان المروزي حيث قال عليه السلام : قول الله تعالى لنبيه (ص) ﴿ فتول عنهم فما أنت بملوم ﴾ قال (ع) : « إن الله أراد هلاكهم ثم بدا لله تعالى فقال : ﴿ وذَكِّر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾ وسوف يرد الحوار الجاري بين سليمان المروزي ومولانا الرضا (ع) فيما يأتي إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وذكّر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾ تفريع على الأمر بالتولي عنهم فهو أمر بالتذكير بعد النهي عن الجدل معهم ، والمعنى : استمرّ على التذكير والعظة فذكّر كما كنت تذكّر فإن الذّكرى تنفع المؤمنين بخلاف الاحتجاج والجدال مع أولئك الطاغين فإنه لا ينفعهم شيئاً ولا يزيدهم إلاّ طغياناً وكفراً .

الآية الثامنة :

قوله تعالى : ﴿ وآخرون مرجون لأمر الله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم

والله عليم حكيم ﴾ الإرجاء التأخير ، والآية معطوفة على قوله : ﴿ وآخرون اعترفوا بذنوبهم ﴾ ومعنى إرجائهم إلى أمر الله انهم لا سبب عندهم يرجح لهم جانب العذاب أو جانب المغفرة فأمرهم يؤول إلى أمر الله ما شاء وأراد فيهم فهو النافذ في حقهم .

وهذه الآية تنطبق بحسب نفسها على المستضعفين الذين هم كالبرزخ بين المحسنين والمسيئين ، وإن ورد في أسباب النزول أن الآية نازلة في الثلاثة الذين خلفوا ثم تابوا فأنزل الله توبتهم على رسوله (ص) وسيجيء إن شاء الله تعالى .

وكيف كان فالآية تخفي ما يؤول إليه عاقبة أمرهم وتبقيها على إبهامها حتى فيما ذيّلت به من الاسمين الكريمين : العليم والحكيم الدالين على أن الله سبحانه يحكم فيهم بما يقتضيه علمه وحكمته ، وهذا بخلاف ما ذيل قوله : ﴿ وآخرون اعترفوا بذنوبهم ﴾ حيث قال : ﴿ عسى الله أن يتوب عليهم والله غفور رحيم ﴾ .

أقول الآية الكريمة استدل بها مولانا الإمام الرضا (ع) على البداء وسوف يأتي ما يؤكد ذلك .

الآية التاسعة :

﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُعَمَّرٍ وَلاَ يُنقَصُ من عُمُرِهِ إلاَّ في كتبٍ ، إن ذَلِكَ عَلَىٰ اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ .

قوله : ﴿ وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلاَّ في كتاب ﴾ أي وما يمد ويزاد في عمر أحد فيكون معمراً ولا ينقص من عمره أي عمر أحد إلاَّ في كتاب .

فقوله : ﴿ وما يعمر من معمر ﴾ من قبيل قوله : ﴿ إني أراني أعصر

خمراً ﴾ [يوسف/٢٦] ، فوضع معمر موضع نائب الفاعل وهو أحد بعناية أنه بعد تعلّق التعمير به يصير معمراً وإلاّ فتعمير المعمر لا معنى له .

وقوله : ﴿ ولا ينقص من عمره ﴾ الضمير في عمره راجع إلى (معمر) باعتبار موصوفه المحذوف وهو أحد والمعنى ولا ينقص من عمر أحد وإلاّ فنقص عمر المفروض معمراً تناقض خارق للفرض .

وقوله : ﴿ إلاّ في كتاب ﴾ وهو اللوح المحفوظ الذي لا سبيل للتغيير إليه فقد كتب فيه أن فلاناً يزاد في عمره كذا لسبب كذا وفلاناً ينقص من عمره كذا لسبب كذا وأما كتاب المحو والإثبات فهو مورد التغير وسياق الآية يفيد وصف العلم الثابت ولهم في قوله: ﴿ وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره ﴾ وجوه أُخر ضعيفة لا جدوى في التعرض لها .

وقوله : ﴿ إن ذلك على الله يسير ﴾ تعليل وتقرير لما في الآية من وصف خلق الإنسان وكيفية إحداثه وإبقائه والمعنى أن هذا التدبير الدقيق المتين المهيمن على كليات الحوادث وجزئياتها المقرر كل شيء في مقره على الله يسير لأنه الله العليم القدير المحيط بكل شيء بعلمه وقدرته فهو تعالى رب الإنسان كما أنه رب كل شيء انتهى .

أقول : وجه الدلالة في هذه الآية على البداء ظاهر من قوله تعالى : ﴿ إلاّ في كتاب ﴾ وهو اللوح المحفوظ ، كما أفاد ذلك سيدنا من خلال تفسيره للآية ، وإننا إن شاء الله تعالى سوف نتعرض لذكر اللوح المحفوظ بصورة أكثر وضوحاً فيما يأتي .

الآية العاشرة :

قوله تعالى : ﴿ الله يبدأ الخلق ثم يعيده ثم إليه ترجعون ﴾ بعد ما ذكر الحجة وتكذيب كثير من الناس لخصّ القول في نتيجتها وهو أن البدء والعود بيده سبحانه وسيرجع إليه الجميع ، والمراد بالخلق المخلوقون ، ولذا أرجع

إليه ضمير الجمع في ﴿ ترجعون ﴾ . والآية واضحة الدلالة على ما نحن فيه كاخواتها .

الآية الحادية عشر :

قوله تعالى : ﴿ وبدأ خلق الإنسان من طين ﴾ المراد بالإنسان النوع فالمبدو خلقه .

تصريحات أهل البيت
بثبوت البداء

لقد أوردنا لقارئنا الكريم بعض الآيات الكريمة التي تعرّضت لذكر البداء بكلا معنييه اللغوي والاصطلاحي وقد ظهر لنا من خلال نقلنا للآيات مع تفاسيرها دلالة قرآنية واضحة تدل على أن البداء ثابت الوقوع من طريق الكتاب العزيز .

أما الآن فتجدر بنا الإشارة إلى إيراد ما صرّح به أئمة أهل البيت عليهم السلام من القول بالبداء ، وذلك فيما جاء عنهم عليهم السلام من الروايات المستفيضة والتي لا يمكن حصرها هنا ، وإنما نذكر للقرّاء الكرام بعضاً منها بما يلي :

١ ـ محمّد بن يحيى ، عن أحمد بن محمد بن عيسى ، عن الحجال ، عن أبي إسحاق ثعلبة ، عن زرارة بن أعين ، عن أحدهما عليهما السلام قال : ما عبدالله بشيء مثل البداء .

٢ ـ عن هشام بن سالم ، عن أبي عبدالله عليه السلام ما عظُم الله بمثل البداء .

٣ ـ عن علي بن إبراهيم ، عن أبيه ، عن ابن أبي عمير ، عن هشام بن سالم وحفص بن البختري وغيرهما ، عن أبي عبدالله عليه السلام قال في هذه

الآية ﴿ يمحو الله ما يشاء ويثبت ﴾ قال : فقال : وهل يمحي إلاّ ما كان ثابتاً وهل يثبت إلاّ ما لم يكن .

٤ ـ عن أبي عبدالله عليه السلام قال : ما بعث الله نبياً حتى يأخذ عليه ثلاث خصال الإقرار له بالعبودية ، وخلع الأنداد ، وأن الله يقدم ما يشاء ، ويؤخّر ما يشاء .

٥ ـ عن زرارة عن حمران ، عن أبي جعفر عليه السلام قال : سألته عن قول الله عزَّ وجلَّ : ﴿ قضى أجلاً وأجل مسمى عنده ﴾ قال : هما أجلان : أجل محتوم وأجل موقوف .

٦ ـ عن ابن مسكان ، عن مالك الجهني قال : سألت أبا عبدالله عليه السلام عن قول الله تعالى : ﴿ أولم ير الإنسان أنّا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً ﴾ قال : فقال : لا مقدّراً ولا مكوَّناً ، قال : وسألته عن قوله : ﴿ هل أتى على الإنسان حينٌ من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً ﴾ فقال : كان مقدَّراً غير مذكور .

٧ ـ عن الفضيل بن يسار قال : سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول : العلم علمان : فعلم عند الله مخزون لم يطلع عليه أحداً من خلقه وعلم علّمه ملائكته ورسله ، فما علّمه ملائكته ورسله فإنه سيكون لا يكذّب نفسه ولا ملائكته ورسله ، وعلم عنده مخزون يقدّم منه ما يشاء ، ويؤخر منه ما يشاء ، ويثبت ما يشاء .

٨ ـ عن الفضيل قال : سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول : من الأمور أمور موقوفة عند الله يقدم منها ما يشاء ويؤخر منها ما يشاء .

عن أبي بصير ، عن أبي عبدالله عليه السلام قال : إن لله علمين ، علم مكنون مخزون ، لا يعلمه إلاّ هو ، من ذلك يكون البداء وعلم علّمه ملائكته ورسله وأنبيائه فنحن نعلمه .

٩ ـ عن عبدالله بن سنان ، عن أبي عبدالله عليه السلام قال : ما بدا لله في شيء إلّا كان في علمه قبل أن يبدو له .

١٠ ـ عن عمرو بن عثمان الجهني ، عن أبي عبدالله عليه السلام قال : إن الله لم يبد له من جهل .

١١ ـ عن منصور بن حازم قال : سألت أبا عبدالله عليه السلام هل يكون اليوم شيء لم يكن في علم الله بالأمس؟ قال : لا من قال هذا فأخزاه الله ، قلت : أرأيت ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة أليس في علم الله؟ قال : بلى قبل أن يخلق الخلق .

١٢ ـ عن مالك الجهني قال : سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول : لو علم الناس ما في القول بالبداء من الأجر ما فتروا عن الكلام فيه .

١٣ ـ عن مرازم بن حكيم قال : سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول : ما تنبأ نبيٌّ قطُّ حتّى يقرّ لله بخمس خصال ، بالبداء والمشيئة والسجود والعبودية والطاعة .

١٤ ـ عن أبي عبدالله عليه السلام قال : إن الله عزَّ وجلَّ أخبر محمداً (ص) بما كان منذ كانت الدنيا ، وبما يكون إلى انقضاء الدنيا ، وأخبره بالمحتوم من ذلك واستثنى عليه فيما سواه .

١٥ ـ عن الريّان بن الصلت قال : سمعت الرضا عليه السلام يقول ما بعث الله نبياً قط إلّا بتحريم الخمر وأن يقرَّ لله بالبداء .

١٦ ـ عن معلى بن محمد قال : سئل العالم عليه السلام كيف علم الله؟ قال : علم وشاء وأراد وقدّر وقضى وأمضى ، فأمضى ما قضى ، وقضى ما قدّر ، وقدّر ما أراد ، فبعلمه كانت المشيئة ، وبمشيئته كانت الإرادة ، وبإرادته كان التقدير ، وبتقديره كان القضاء ، وبقضائه كان الامضاء ، والعلم

متقدم على المشيئة ، والمشيئة ثانية ، والإرادة ثالثة ، والتقدير واقع على القضاء بالإمضاء .

فللّه تبارك وتعالى البداء فيما علم متى شاء ، وفيما أراد لتقدير الأشياء ، فإذا وقع القضاء بالإمضاء فلا بداء ، فالعلم في المعلوم قبل كونه ، والمشيئة في المنشأ قبل عينه ، والإرادة في المراد قبل قيامه ، والتقدير لهذه المعلومات قبل تفصيلها وتوصيلها عياناً ووقتاً ، والقضاء بالإمضاء هو المبرم من المفعولات ، ذوات الأجسام المدركات بالحواسّ من ذوي لون وريح ووزن وكيل وما دبَّ ودرج من إنس وجنّ وطير وسباع وغير ذلك ممّا يدرك بالحواس .

فللّه تبارك وتعالى فيه البداء ممّا لا عين له ، فإذا وقع العين المفهوم المدرك فلا بداء ، والله يفعل ما يشاء ، فبالعلم علم الأشياء قبل كونها ، وبالمشيئة عرف صفاتها وحدودها وأنشأها قبل إظهارها ، وبالإرادة ميّز أنفسها في ألوانها وصفاتها ، وبالتقدير قدّر أقواتها وعرف أوّلها وآخرها ، وبالقضاء أبان للناس أماكنها ودلّهم عليها ، وبالإمضاء شرح عللها وأبان أمرها وذلك تقدير العزيز العليم .

١٧ ـ عن منصور بن حازم قال سألت أبا عبدالله عليه السلام هل يكون اليوم شيء ولم يكن في علم الله بالأمس ، قال لا من قال هذا فأخزاه الله قلت أرأيت ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة أليس في علم الله قال بلى قبل أن يخلق الله الخلق .

١٨ ـ وعن الكاهلي قال كتبت إلى أبي الحسن (ع) في دعاء الحمد لله منتهى علمه فكتب لا تقولن منتهى علمه فليس بعلمه منتهى ولكن قل منتهى رضاه .

١٩ ـ عن محمد بن مسلم قال : سألت أبا عبدالله (ع) عن قول الله عزّ

وجلَّ يعلم السر وأخفى قال : السر ما كتمته في نفسك وأخفى ما خطر ببالك ثم أنسيته .

٢٠ ـ عن أبي عبدالله (ع) في قوله عزَّ وجل عالم الغيب والشهادة فقال الغيب ما لم يكن والشهادة ما قد كان .

٢١ ـ عن هشام بن الحكم عن الصيقل عن أبي عبدالله (ع) قال : إن لله علم لا جهل فيه ، وحياة لا موت فيه ، ونور لا ظلمة فيه .

٢٢ ـ عن حفص بن غيّاث قال : سألت أبا عبدالله (ع) وسع كرسيه السماوات والأرض قال : علمه .

٢٣ ـ عن أبي عبدالله (ع) في حديث قال العرش هو العلم الذي لا يقدّر أحد قدره .

٢٤ ـ عن هشام بن سالم وجعفر بن البختري وغيرهما عن أبي عبدالله (ع) قال : في هذه الآية يمحو الله ما يشاء ويثبت قال فقال : وهل يمحي إلاَّ ما كان ثابتاً؟ وهل يثبت إلاَّ ما لم يكن .

٢٥ ـ عن هشام عن أبي عبدالله (ع) قال : ما عظّم الله بمثل البداء .

٢٦ ـ عن أبي عبدالله (ع) قال : ما بعث الله نبياً حتى يأخذ عليه ثلاث خصال الإقرار له بالعبودية وخلع الانداد وإن الله يقدم ما يشاء ويؤخر ما يشاء .

٢٧ ـ عن أبي جعفر (ع) قال : سألته عن قول الله عزَّ وجلَّ قضى أجلاً وأجل مسمى عنده قال : هما أجلان أجل محتوم ، وأجل موقوف .

٢٨ ـ عن الفضيل قال : سمعت أبا جعفر (ع) يقول من الأمور ، أمور موقوفة عند الله يقدم منها ما يشاء ويؤخر منها ما يشاء .

٢٩ ـ عن الفضل بن يسار قال : سمعت أبا جعفر (ع) يقول العلم علمان فعلم عند الله مخزون لم يطلع عليه أحداً من خلقه وعلم علمه ملائكته

ورسله فإنه سيكون لا يكذب نفسه ولا ملائكته ولا رسله وعلم عنده مخزون يقدم منه ما يشاء ويؤخر منه ما يشاء ويثبت ما يشاء .

٣٠ ـ عن أبي بصير عن أبي عبدالله (ع) قال : إن لله علمين علم مكنون مخزون لا يعلمه إلّا هو من ذلك يكون البداء وعلم علّمه ملائكته ورسله وأنبيائه فنحن نعلمه .

٣١ ـ عن أبي عبدالله (ع) قال : إن الله عزَّ وجلَّ أخبر محمداً (ص) بما كان منذ كانت الدنيا وبما يكون إلى انقضاء الدنيا وأخبره بالمحتوم من ذلك واستثنى عليه فيما سواه .

٣٢ ـ عن محمّد بن يعقوب عن محمد بن أبي عبدالله ومحمد بن يحيى رفعاه إلى أبي عبدالله عليه السلام في خطبة لأمير المؤمنين (ع) قال : والله لم يجهل ولم يتعلم أحاط بالأشياء علماً قبل كونها فلم يزدد بكونها علماً علمه بها قبل أن يكونها كعلمه بها بعد تكوينها لم يكونها لتشديد سلطان لا خوف من زوال ولا نقصان ولا استعانة على ضد منافر ولا ند مكاثر ولا شريك مكابر بل خلايق مربوبون وعباد داخرون .

٣٣ ـ عن أبي عبدالله عليه السلام في حديث قال : لو كان يصل إلى الله الأسف والضجر لجاز لقائل أن يقول إن الخالق يبيد يوماً لأنه إذا داخله الغضب والضجر دخله التغير وإذا دخله التغير لم يؤمن عليه الإبادة إلى أن قال : تعالى الله عن هذا القول علواً كبيراً بل هو الخالق للأشياء لا لحاجة فإذا كان لا لحاجة استحال الحد والكيف فيه .

٣٤ ـ عن الحسن بن محمد النوفلي يقول قال الرضا عليه السلام لسليمان المروزي : ما أنكرت من البداء يا سليمان والله عزَّ وجل يقول : ﴿ أولم ير الإنسان أنّا خلقناه من قبل ولم يَكُ شيئاً ﴾ ويقول عزَّ وجلَّ : ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده ﴾ ويقول : ﴿ بديع السماوات والأرض ﴾ ، ويقول عزَّ وجلّ : ﴿ يزيد في الخلق ما يشاء ﴾ ، ويقول :

﴿ بدأ خلق الإنسان من طين ﴾ ، ويقول عزَّ وجلَّ : ﴿ وآخرون مرجون لأمر الله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم ﴾ ، ويقول عزَّ وجلَّ : ﴿ وما يعمر من معمّر ولا ينقص من عمره إلاَّ في كتاب ﴾ ، قال سليمان هل رويت فيه عن آبائك (ع) شيئاً؟ قال : نعم . رويت عن أبي عبدالله عليه السلام أنه قال : إن الله عزَّ وجلَّ له علمين علماً مخزوناً مكنوناً لا يعلمه إلاَّ هو من ذلك يكون البداء وعلماً علّمه ملائكته ورسله والعلماء من أهل بيت نبيك يعلمونه قال سليمان : أحب أن تنزعه لي من كتاب الله عزَّ وجلَّ . قال : قول الله عزَّ وجلَّ لنبيه (ص) ﴿ فتولّ عنهم فما أنت بملوم ﴾ أراد إهلاكهم ثم بدا فقال : ﴿ وذكّر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾ . قال سليمان : زدني جعلت فداك. قال الرضا (ع) : لقد أخبرني أبي عن آبائه أن رسول الله (ص) قال : أوحى الله إلى نبي من أنبيائه أن أخبر فلاناً الملك أني متوفيه إلى كذا وكذا فأتاه الملك فأخبره فدعا الله الملك وهو على سريره حتى سقط من السرير ، وقال يا رب أجلني حتى يشب طفلي وأقضي أمري فأوحى الله إلى ذلك النبي أن ائت فلاناً الملك فأعلمه أنّي قد أنسيت أجله وزدت في عمره خمس عشرة سنة فقال ذلك النبي يا رب إنك لتعلم أني لم أكذب قط فأوحى الله تعالى إليه ، إنّما أنت عبد مأمور وأبلغه ذلك والله لا يسأل عمّا يفعل .

عن عبدالله بن سنان عن أبي عبدالله (ع) قال : ما بدأ الله في شيء إلاَّ كان في علمه قبل أن يبدو له .

الحسن بن محمد النوفلي يقول : قدّم سليمان المروزي متكلم خراسان على المأمون فأكرمه ووصله ثم قال له : إن ابن عمي علي بن موسى الرضا عليه السلام قدِمَ عليَّ من الحجاز وهو يحب الكلام وأصحابه فلا عليك أن تصير إلينا يوم التروية لمناظرته فقال سليمان : يا أمير المؤمنين إني أكره أن أسأل مثله في مجلسك في جماعة من بني هاشم فيتقص عند القوم إذا كلمني ولا يجوز الانتقاص عليه قال المأمون إنما وجهّت إليه لمعرفتي بقوتك وليس

مرادي إلاَّ أن تقطعه عن حجة واحدة فقط فقال سليمان : حسبك يا أمير المؤمنين إجمع بيني وبينه وخلني والذم فوجه المأمون إلى الرضا (ع) فقال : إنه قدم إلينا رجل من أهل مرو وهو واحد خراسان من أصحاب الكلام فإن خف عليك أن تتجشم المصير إلينا فعلت فنهض (ع) للوضوء وقال لنا : تقدموني وعمران الصابي معنا فصرنا إلى الباب فأخذ ياسر وخالد بيدي فأدخلاني على المأمون فلما سلمت قال : أين أخي أبو الحسن أبقاه الله تعالى؟ قلت : خلفته يلبس ثيابه وأمرنا أن نتقدم ثم قلت : يا أمير المؤمنين أن عمران مولاك معي وهو على الباب فقال : ومن عمران ؟ قلت الصابي الذي أسلم على يدك قال : فليدخل فدخل فرحب به المأمون ثم قال له : يا عمران لم تمت حتى صرت من بني هاشم قال : الحمد لله الذي شرفني بكم يا أمير المؤمنين فقال له المأمون : يا عمران هذا سليمان المروزي متكلم فلم لا تنظروه؟ قال عمران ذلك إليه فدخل الرضا (ع) فقال : في أي شيء كنتم؟ قال عمران : يا ابن رسول الله هذا سليمان المروزي فقال له سليمان: أترضى بأبي الحسن وبقوله فيه؟ فقال عمران : قد رضيت بقول أبي الحسن في البداء على أن يأتيني فيه بحجة احتج بها على نظرائي من أهل النظر قال المأمون؟ يا أبا الحسن ما تقول فيما تشاجرا فيه؟ قال : وما أنكرت من البداء يا سليمان والله عزَّ وجلَّ يقول : ﴿ **أولم ير الإنسان إنا خلقناه من قبل ولم يكُ شيئاً** ﴾ ويقول عزَّ وجلَّ : ﴿ **وهو الذي يبدء الخلق ثم يعيده** ﴾ ويقول : ﴿ **بديع السماوات والأرض** ﴾ ويقول عزَّ وجل : ﴿ **يزيد في الخلق ما يشاء** ﴾ ويقول : ﴿ **وبدء خلق الإنسان من طين** ﴾ ويقول عز وجل : ﴿ **وآخرون مرجون لأمر الله إما يعذّبهم وإما يتوب عليهم** ﴾ ويقول عز وجل : ﴿ **وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلاَّ في كتاب** ﴾ قال سليمان : هل رويت فيه من آبائك شيئاً؟ قال : نعم رويت عن أبي عبدالله (ع) أنه قال : إن لله عزَّ وجلَّ علمين علماً مخزوناً مكنوناً لا يعلّمه إلاَّ هو من ذلك يكون البداء وعلماً علمه ملائكته ورسله فالعلماء من أهل البيت نبينا يعلمونه قال سليمان : أحب أن

تنزعه لي من كتاب الله عزَّ وجلَّ قال : قول الله عزَّ وجلَّ لنبيه (ص) : ﴿ فتول عنهم فما أنت بملوم ﴾ أراد هلاكهم ثم بدا لله تعالى فقال : ﴿ وذكّر فإن الذّكرى تنفع المؤمنين﴾ قال سليمان : زدني جعلت فداك .

قال الرضا : لقد أخبرني أبي عن آبائه عليهم السلام عن رسول الله (ص) قال : إن الله عزَّ وجلَّ أوحى إلى نبي من أنبيائه أن أخبر فلاناً الملك : أني متوفيه إلى كذا وكذا فأتاه ذلك النبي فأخبره فدعا الله الملك وهو على سريره حتى سقط من السرير وقال : يا رب أجلني حتى يشب طفلي وأقضي أمري فأوحى الله عزَّ وجلَّ إلى ذلك النبي : أن ائت فلاناً الملك فاعلم اني قد انسيت في أجله وزدت في عمره إلى خمس عشرة سنة فقال ذلك النبي (ص) : يا رب إنك لتعلم أني لم أكذب قط فأوحى الله عزَّ وجلَّ إليه : إنما أنت عبد مأمور فأبلغه ذلك والله لا يسأل عمّا يفعل ثم التفت إلى سليمان فقال : أحسبك ضاهيت اليهود في هذا الباب قال : أعوذ بالله من ذلك وما قالت اليهود قال : قالت اليهود (يد الله مغلولة) يعنون أن الله تعالى قد فرغ من الأمر فليس يحدث شيئاً فقال الله عز وجل: ﴿ غلّت أيديهم ولعنوا بما قالوا ﴾ ولقد سمعت قوماً سألوا أبي موسى بن جعفر(ع) عن البداء فقال : وما ينكر الناس من البداء وأن يقف الله قوماً يرجيهم لأمره قال سليمان : ألا تخبرني عن ﴿ إنّا أنزلناه في ليلة القدر ﴾ في أي شيء أنزلت؟ قال سليمان : ليلة القدر يقدّر الله عزَّ وجلَّ فيها ما يكون من السنة إلى السنة من حياة أو موت أو خير أو شر أو رزق فما قدّره في تلك السنة فهو من المحتوم قال سليمان : الآن قد فهمت جعلت فداك فزدني ، قال : يا سليمان إن من الأمور أموراً موقوفة عند الله عزَّ وجلَّ يقدم منها ما يشاء ويؤخر منها ما يشاء ويمحو ما يشاء يا سليمان إن علياً (ع) كان يقول : العلم علمان فعلم علمه الله وملائكته ورسله فما علمه ملائكته ورسله فإنه يكون ولا يكذب نفسه ولا ملائكته ولا رسله وعلم عنده مخزون ولم يطلع عليه أحداً من خلقه يقدم منه ما يشاء ويؤخر منه ما يشاء قال سليمان للمأمون : يا أمير المؤمنين لا أنكر بعد يومي

هذا البداء ولا أكذب به إن شاء الله ، فقال المأمون : يا سليمان سل أبي الحسن عمّا بدا لك وعليك بحسن الاستماع والانصاف فال سليمان: أسألك؟ قال الرضا (ع) : سل عمّا بدا لك، قال : ما تقول فيمن جعل الإرادة اسماً وصفة مثل حي وسميع وبصير وقدير؟ فقال الرضا (ع) إنما قلتم : حدثت الأشياء واختلفت لأنه شاء وأراد ولم تقولوا : حدثت الأشياء واختلفت لأنه سميع بصير فهذا دليل على أنهما ليستا مثل سميع ولا بصير ولا قدير قال : سليمان فإنه لم يزل مريداً قال (ع) : يا سليمان فإرادته غيره قال : نعم. قال : فقد أثبت معه شيئاً غيره لم يزل. قال سليمان : ما أثبت؟. قال الرضا (ع) : أهي محدثة؟ قال سليمان : لا ما هي محدثة فصاح به المأمون وقال : يا سليمان مثله يعابي أو يكابر؟ عليك بالإنصاف أما ترى من حولك من أهل النظر؟ ثم قال: كلّمه يا أبا الحسن فإنه متكلم خراسان فأعاد عليه المسألة فقال : هي محدثة يا سليمان فإن الشيء إذا لم يكن أزلياً كان محدثاً وإذا لم يكن محدثاً كان أزلياً قال سليمان : إرادته منه كما أن سمعه وبصره وعلمه منه قال الرضا (ع) : فأراد نفسه قال : لا. قال : فليس المريد مثل السميع والبصير. قال سليمان : إنما أراد نفسه وعلم نفسه. قال الرضا (ع) : ما معنى أراد نفسه؟ أراد أن يكون شيئاً وأراد أن يكون حيّاً أو سميعاً أو بصيراً أو قديراً؟. قال : نعم. قال الرضا (ع) : أفبإرادته كان ذلك؟ قال سليمان : نعم. قال الرضا (ع) : فليس لقولك أراد أن يكون حياً سميعاً بصيراً معنى إذا لم يكن ذلك بإرادته. قال سليمان : بلى قد كان ذلك بإرادته فضحك المأمون ومن حوله وضحك الرضا (ع) ، ثم قال لهم : أرفقوا بمتكلم خراسان. فقال: يا سليمان فقد حال عندكم عن حالة وتغير عنها وهذا ما لا يوصف الله عزّ وجلّ به فانقطع ثم قال الرضا (ع) : يا سليمان أسألك عن مسألة. قال : سل جعلت فداك. قال : أخبرني عنك وعن أصحابك تكلمون الناس بما تفقهون وتعرفون؟ أو بما لا تفقهون ولا تعرفون؟قال : بل بما نفقه ونعلم. قال الرضا (ع) : فالذي يعلم الناس أن المريد غير الإرادة وأن المريد قبل الإرادة وأن

الفاعل قبل المفعول وهذا يبطل قولكم أن الإرادة والمريد شيء واحد قال: جعلتُ فداك ليس ذلك منه على ما يعرف الناس ولا على ما يفقهون. قال الرضا (ع) : فأراكم ادعيتم علم ذلك بلا معرفة وقلتم : الإرادة كالسمع والبصر إذا كان ذلك عندكم على ما لا يعرف ولا يعقل فلم يحر جواباً، ثم قال الرضا (ع) : يا سليمان هل يعلم الله جميع ما في الجنة والنار؟ قال سليمان : نعم . قال : أفيكون ما علم الله تعالى أنه يكون من ذلك؟. قال : نعم . قال : فإذا كان حتى لا يبقى منه شيء إلاّ كان ليزيدهم أو يطويه عنهم؟. قال سليمان : بل يزيدهم. قال : فأراه في قولك قد زادهم ما لم يكن في علمه أنه يكون قال جعلت فداك فالمريد لا غاية له. قال : فليس يحيط علمه عندكم بما يكون فيهما ، إذا لم يعرف غاية ذلك وإذا لم يحط علمه بما يكون فيهما لم يعلم ما يكون فيهما قبل أن يكون تعالى الله عزَّ وجلَّ عن ذلك علواً كبيراً . قال سليمان : إنّما قلت : لا يعلمه لأنه لا غاية لهذا لأن الله عز وجل وصفهما بالخلود وكرهنا أن نجعل لهما انقطاعاً. قال الرضا (ع) : ليس علمه بذلك بموجب لانقطاعه عنهم لأنه قد يعلم ذلك ثم يزيدهم ثم لا يقطعه عنهم . وكذلك قال الله عز وجل في كتابه : ﴿ **كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب** ﴾. وقال لأهل الجنة : ﴿ **عطاء غير مجذوذ** ﴾ ، وقال عز وجل : ﴿ **وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة** ﴾ فهو عز وجل يعلم ذلك ولا يقطع عنهم الزيادة أرأيت ما أكل أهل الجنة وما شربوا ليس يخلف مكانه؟. قال : بلى. قال : أفيكون يقطع ذلك عنهم وقد أخلف مكانه؟. قال سليمان : لا. قال : فكذلك كلما يكون فيها إذا أخلف مكانه فليس بمقطوع عنهم قال سليمان : بلى يقطعه عنهم قال سليمان : بلى يقطعه عنهم ولا يزيدهم. قال الرضا (ع) : إذاً يبيد فيها وهذا يا سليمان إبطال الخلود وخلاف الكتاب لأن الله عزَّ وجلَّ يقول : ﴿ **لهم ما يشاؤون فيها ولدينا مزيد** ﴾ ويقول عزَّ وجلَّ : ﴿ **عطاء غير مجذوذ** ﴾ ويقول عز وجل : ﴿ **وما هم عنها بمخرجين** ﴾ ويقول عز وجل : ﴿ **خالدين فيها أبداً** ﴾ ويقول عز وجل :

﴿وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة﴾ فلم يحر جواباً، ثم قال الرضا (ع): يا سليمان ألا تخبرني عن الإرادة فعل هي أم غير فعل؟. قال: بلى هي فعل. قال (ع): فهي محدثة لأن الفعل كله محدث قال: ليست بفعل. قال: فمعه غيره لم يزل. قال سليمان: الإرادة هي الإنشاء، قال سليمان: هذا الذي عبتموه على ضرار وأصحابه من قولهم: إن كل ما خلق الله عز وجل في سماء أو أرض أو بحر أو بر من كلب أو خنزير او قرد أو إنسان أو دابة إرادة الله وإن إرادة الله تحيى وتموت وتذهب وتأكل وتشرب وتنكح وتلذ وتظلم وتفعل الفواحش وتكفر وتشرك فيبرأ منها ويعاد بها وهذا حدها. قال سليمان: إنها كالسمع والبصر والعلم. قال الرضا (ع): قد رجعت إلى هذا ثانية، فأخبرني عن السمع والبصر والعلم أمصنوع؟ قال سليمان: لا. قال الرضا (ع): فكيف نفيتموه؟. قلتم لم يرد. ومرة قلتم: أراد وليست بمفعول له. قال سليمان: إنما ذلك كقولنا مرة علم ومرة لم يعلم. قال الرضا (ع): ليس ذلك سواء لأن نفي المعلوم ليس كنفي العلم ونفي المراد نفي الإرادة أن تكون لأن الشيء إذا لم يرد لم تكن إرادة فقد يكون العلم ثابتاً وإن لم يكن المعلوم بمنزلة البصر فقد يكون الإنسان بصيراً وإن لم يكن المبصر وقد يكون العلم ثابتاً وإن لم يكن المعلوم قال سليمان إنها مصنوعة قال فهي محدثة ليست كالسمع والبصر لأن السمع والبصر ليسا بمصنوعين وهذه مصنوعة قال سليمان: إنها صفة من صفاته لم تزل. قال: فينبغي أن يكون الإنسان لم يزل لأن صفته لم تزل. قال سليمان: لا لأنه لم يفعلها. قال الرضا (ع) يا خراساني ما أكثر غلطك أفليس بإرادته وقوله تكون الأشياء؟ قال سليمان: لا. قال: فإذا لم تكن بإرادته ولا بمشيئته ولا أمره ولا بالمباشرة فكيف يكون ذلك؟. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً فلم يحر جواباً، ثم قال الرضا (ع): ألا تخبرني عن قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها﴾ يعني ذلك أنه يحدث إرادة. قال له: نعم. قال (ع): فإذا حدث إرادة كان قولك: إن الإرادة هي هو أو شيء منه باطلاً لأنه لا يكون أن

يحدث نفسه ولا يتغير عن حالة تعالى الله عن ذلك قال سليمان : إنه لم يكن عني بذلك أنه يحدث إرادة. قال : فما عني به؟ قال : عني فعل الشيء. قال الرضا (ع) : ويلك كم تردد في هذه المسألة؟. وقد أخبرتك أن الإرادة محدثة لأن فعل الشيء محدث قال : فليس لها معنى. قال الرضا (ع) قد وصف نفسه عندكم حتى وصفها بالإرادة بما لا معنى له فإذا لم يكن لها معنى قديم ولا حديث بطل قولكم ان الله عزَّ وجلَّ لم يزل مريداً قال سليمان : إنما عنيت أنها فعل من الله تعالى لم يزل . قال : ألا تعلم أن ما لم يزل لا يكون مفعولاً وقديماً وحديثاً في حالة واحدة؟ فلم يحر جواباً. قال الرضا (ع) : لا بأس أتمم مسألتك ، قال سليمان : قلت : إن الإرادة صفة من صفاته . قال : كم تردد على أنها صفة من صفاته فصفته محدثة أو لم تزل؟ قال سليمان : محدثة . قال الرضا (ع) : الله أكبر فالإرادة محدثة وإن كانت صفة من صفاته لم تزل فلم يرد شيئاً. قال الرضا (ع) : إن ما لم يزل لم يكن مفعولاً قال سليمان : ليس الأشياء إرادة ولم يرد شيئاً. قال الرضا (ع) : وسوست يا سليمان فقد فعل وخلق ما لم يزل خلقه وفعله وهذه صفة من لا يدري ما فعل؟ تعالى الله عن ذلك. قال سليمان : يا سيدي فقد أخبرتك أنها كالسمع والبصر والعلم. قال المأمون : ويلك يا سليمان كم هذا الغلط والتردد؟ اقطع هذا وخذ في غيره إذ لست تقوى على غير هذا الرد. قال الرضا (ع) : دعه يا أمير لا تقطع عليه مسألته فيجعلها حجة ، تكلّم يا سليمان، قال : قد أخبرتك أنها كالسمع والبصر والعلم، قال الرضا (ع) : لا بأس أخبرني عن معنى هذه أمعنى واحد أم معان مختلفة؟ قال سليمان : معنى واحد. قال الرضا (ع) : فمعنى الإرادات كلّها معنى واحد. قال سليمان : نعم . قال الرضا (ع) : فإن كان معناها معنى واحداً كانت إرادة القيام إرادة القعود ، وإرادة الحياة إرادة الموت إذا كانت إرادته واحدة لم تتقدم بعضها بعضاً ولم يخالف بعضها بعضاً وكانت شيئاً واحداً قال سليمان : إن معناها مختلف. قال (ع) : فأخبرني عن المريد أهو الإرادة أو غيرها؟ قال سليمان :

بل هو الإرادة. قـال الرضـا (ع) فالمـريد عنـدكم مختلف إذ كان هـو الإرادة. قال : يا سيدي ليس الإرادة المريـد. قال : فـالإرادة محدثـة وإلاَّ فمعه غيـره افهم وزد في مسألتك. قـال سليمان : بـل هي اسم من أسمائـه . قال الـرضا (ع) : هل سمى نفسه بذلك؟ قـال سليمان : لا . لم يسم بـه نفسه بـذلك . قال الرضا (ع) : فليس لك أن تسميه بما لم يسم بـه نفسه. قـال : قد وصف نفسه بأنه مريد. قال الـرضا (ع) : ليس صفته نفسه أنه مريـد اخبار عن أنـه إرادة ولا اخبـار عن أن الإرادة اسم من أسمـائـه . قـال سليمـان : لأن إرادتـه علمه. قال الرضا (ع) : يا جاهل، فإذا علم الشيء فقد أراده، قال سليمان : أجل . فقال : فـإذا لم يرده لم يعلمـه. قال سليمـان : أجل . قـال : من أين قلت ذلك؟ وما الدليل على أن إرادته علمه؟ وقد يعلم ما لا يـريده أبـداً وذلك قوله عـزَّ وجلَّ : ﴿ ولئن شئنـا لنذهبن بـالذي أوحينـا إليك ﴾ فهـو يعلم كيف يذهب به وهو لا يذهب بـه أبداً. قـال سليمان : لأنـه قد فـرغ من الأمر فليس يـزيد فيه شيئاً. قـال الرضـا (ع) : هـذا قـول اليهـود. فكيف قـال تعـالى : ﴿ ادعـوني أستجب لكم ﴾؟ قال سليمـان : إنما عني بـذلك أنـه قادر عليـه. قال : أفيعد ما لا يفي به فكيف قال : ﴿ يزيد في الخلق ما يشاء ﴾، وقال عـز وجل : ﴿ يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب ﴾ وقد فرغ من الأمر فلم يحو جواباً. قال الرضا (ع) : يا سليمان هل يعلم أن إنساناً يكون ولا يـريد أن يخلق إنسـاناً أبـداً وان إنسانـاً يموت اليـوم ولا يريـد أن يمـوت اليـوم؟. قـال سليمان : نعم . قال الرضا (ع) : فيعلم ان يكـون ما يـريد أن يكـون أو يعلم أنه يكون ما لا يريد أن يكون. قـال : يعلم أنهما يكـونان جميعـاً. قال الـرضا (ع) : إذاً يعلم أن إنسـاناً حي ميت قـائم قاعـد أعمى بصير في حـالة واحـدة وهـذا هو المحـال. قال : جعلت فـداك فإنـه يعلم أنـه يكـون أحـدهمـا دون الأخـر. قال : لا بـأس فأيهمـا يكون الـذي أراد أن يكون أو الـذي لم يرد أن يكـون؟ قال سليمـان : الذي أراد أن يكـون فضحـك الـرضـا (ع) والمـأمـون وأصحـاب المقالات قـال الرضـا (ع) : غلطت وتركت قـولـك : أنـه يعلم أن

إنساناً يموت اليوم وهو لا يريد أن يموت اليوم وأنه يخلق خلقاً وأنه لا يـريد أن يخلقهم إذا لم يجز العلم عندكم بما لم يرد أن يكون فإنمـا يعلم أن يكون مـا أراد أن يكون. قال سليمان : فإنما قولي إن الإرادة ليست هـو ولا غيره. قـال الرضا (ع) : يا جاهل إذا قلت ليست هو فقـد جعلتها غيـره، وإذا قلت ليست هي غيـره فقد جعلتهـا هو، قـال سليمـان : فهـو يعلم كيف يصنـع الشيء؟. قال : نعم . قال سليمان : فإن ذلـك إثبات للشيء قـال الرضـا (ع) : أحلت لأن الرجل قد يحسن البناء وإن لم يبن ويحسن الخياطة وإن لم يخط ويحسن الصنعة لشـيء وإن لم يصنعه أبداً ثم قال الـرضا (ع) لـه : يا سليمان هل تعلم أنـه واحد لا شيء معـه؟ قال : نعم . قـال الرضـا (ع) : فيكون ذلـك إثبـاتـاً لشيء. قـال سليمان : ليس يعلم أنـه واحد لا شيء معـه. قال الـرضا (ع) : أفتعلم أنت ذاك؟ قـال نعم . قـال : فـأنت يـا سليمــان أعلم منـه إذاً. قــال سليمان : المسألة محال. قال : محال عندك أنه واحـد لا شيء معه وأنـه حي سميع بصير حكيم قادر. قال : نعم. قال : فكيف أخبر عز وجل : أنـه واحد حي سميـع بصير حكيم قـادر عليم خبير وهـو لا يعلم ذلـك وهـذا رد مـا قـال وتكذيبه تعالى الله عن ذلك، ثم قال له الـرضا (ع) : فكيف يـريد صنـع ما لا يدري صنعه ولا ما هو؟ وإذا كان الصانع لا يدري صنعه ولا ما هـو؟ وإذا كان الصانع لا يدري كيف يصنع الشيء قبل أن يصنعه ؟ فإنما هو متحيّر تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً قال سليمان : فإن الإرادة القدرة، قـال الرضـا (ع) : وهو عزَّ وجلَّ يقدّر على ما لا يريده أبـداً ولا بد من ذلـك لأنه قـال تبارك وتعـالى : ﴿ ولئن شئنا لنذهبّن بالذي أوحينا إليك ﴾ فلو كانت الإرادة هي القدرة كان قد أراد أن يذهب به لقدرته فانقطع سليمان فقال المأمون عند ذلك : يـا سليمان هذا أعلم هاشمي ثم تفرّق القوم .

٣٥ ـ محمد بن يعقوب عن عـدة من أصحابنـا عن أحمد بن محمـد بن خـالـد عن أبيـه وعن محمـد بن يحيى عن أحمـد بن محمـد بن عيسى عن الحسين بن سعيد ومحمد بن خالد جميعاً عن فضالـة بن أيوب عن محمـد بن

عمارة عن حريز بن عبدالله وعبدالله بن مسكان جميعاً عن أبي عبدالله (ع) : قال لا يكون شيء في الأرض ولا في السماء إلاّ بهذه الخصال السبع بمشيئة، وإرادة ، وقضاء ، وقدر ، واذن ، وكتاب وأجل ، فمن زعم أنه يقدر على نقص واحدة فقد كفر .

٣٦ ـ عن أبي بصير عن أبي عبدالله (ع) قال : إن لله علمين ، علم مكنون مخزون لا يعلمه إلاّ هو من ذلك تكوّن البداء ، وعلم علّمه ملائكته ، ورسله وأنبياءه فنحن نعلمه .

٣٧ ـ ما رواه الكليني في باب الصدقة عن الصادق (ع) ، قال : مرّ يهودي بالنبي (ص) فقال : السام عليك ، فقال رسول الله (ص) : وعليك ، فقال أصحابه : إنما سلّم عليك بالموت ، فقال : الموت عليك ، فقال النبي (ص) : وكذلك رددت ، ثم قال النبي (ص) : إن هذا اليهود يعضّه أسود في قفاه فيقتله ، قال : فذهب اليهودي فاحتطب حطباً كثيراً فاحتمله ثم لم يلبث أن انصرف فقال له رسول الله (ص) ضعه فوضع الحطب فإذا أسود في جوف الحطب عاضّ على عود فقال (ص) : يا يهودي أي شيء عملت اليوم. فقال : ما عملت عملاً إلاّ حطبي هذا احتملته وجئت به ، وكان معي كعكتان فأكلت واحدة وتصدّقت بواحدة على مسكين ، فقال رسول الله (ص) : بها دفع الله عنك ، وقال (ص) : إن الصدقة تدفع ميتة السوء عن الإنسان .

٣٨ ـ وفي الكافي عن أبي جعفر (ع) أن الله عز وجل إذا أراد أن يخلق النطفة التي مما أخذ عليه الميثاق في صلب آدم أو ما يبدو له ويجعلها في الرحم حرك الرجل للجماع وأوحى إلى الرحم إفتحي بابك حتى يلج فيك خلقي وقضائي النافذ وقدري ، فتفتح الرحم بابها فتصل النطفة إلى الرحم فتردد فيه أربعين يوماً ، ثم تصير علقة أربعين يوماً ، ثم تصير مضغة أربعين يوماً ، ثم تصير لحماً تجري فيه عروق مشتبكة ، ثم يبعث الله ملكين خلاّقين يخلقان في الأرحام ما يشاء الله فيقتحمان في بطن المرأة من فم المرأة

فيصلان إلى الرحم وفيها الروح القديمة المنقولة من أصلاب الرجال وأرحام النساء فينفخان فيها روح الحياة والبقاء ، ويشقان له السمع والبصر وجميع الجوارح وجميع ما في البطن بإذن الله تعالى ، ثم يوحي الله إلى الملكين أكتبا عليه قضائي وقدري ونافذ أمري ، واشترطا لي البداء في ما تكتبان ، فيقولان : يا رب ما نكتب؟ فيوحي الله إليهما أن ارفعا رؤوسكما إلى رأس أمه ، فيرفعان رؤوسهما فإذا اللوح يقرع جبهة أمه فينظران فيه فيجدان في اللوح صورته وزينته وأجله وميثاقه شقياً أو سعيداً وجميع شأنه ، قال : فيملي أحدهما على صاحبه فيكتبان جميع ما في اللوح ، ويشترطان البداء في ما يكتبان) إلى آخر الحديث .

وبالجملة أن الآيات والأخبار المتقدم ذكرها تدل على أن الله تعالى خلق لوحين أثبت فيهما ما يحدث من الكائنات (أحدهما) اللوح المحفوظ الذي لا تغيّر فيه أصلاً وهو مطابق لعلمه تعالى (والآخر) لوح المحو والإثبات ، فيثبت فيه شيئاً ، ثم يمحوه لحكم كثيرة لا تخفى على أولي الألباب ، مثلاً يكتب فيه أن عمر زيد خمسون سنة ، ومعناه أن مقتضى الحكمة أن يكون عمره كذا إذا لم يفعل ما يقتضي طوله أو قصره ، فإذا وصل الرحم مثلاً يمحي الخمسون ويكتب مكانه أربعون ، وفي اللوح المحفوظ أن يصل عمره ستون كما أن الطبيب الحاذق إذا اطلع على مزاج شخص يحكم بأن عمره بحسب هذا المزاج يكون ستين سنة ، فإذا شرب سمّاً ومات أو قتله إنسان فنقص من ذلك أو استعمل دواء قوي مزاجه فزاد عليه لم يخالف قول الطبيب، والتغيير الواقع في هذا اللوح مسمّى بالبداء ، إما لأنه مشبه به كما في سائر ما يطلق عليه تعالى من الابتلاء والاستهزاء ، والسخرية وأمثالها ، أو لأنه يظهر للملائكة أو للخلق إذا أخبروا بالأول خلاف ما علموا أولاً ، وأي استبعاد في تحقق هذين اللوحين وأيّ استحالة في هذا المحو والإثبات حتى يحتاج إلى التأويل والتكلف وإن لم تظهر الحكمة فيه لنا لعجز عقولنا عن الإحاطة بها ، مع أن الحكم فيها ظاهرة ، منها أن يظهر للملائكة الكاتبين في

اللوح والمطلعين عليه لطفه تعالى بعباده ، وإيصالهم في الدنيا إلى ما يستحقونه ، فيزداد به معرفة ، ومنها أن يعلم العباد بأخبار الرسل والحجج (ع) أن لأعمالهم الحسنة مثل هذه التأثيرات في صلاح أمورهم ، ولأعمالهم السيئة تأثيراً في فسادها فيكون داعياً لهم إلى الخيرات صارفاً لهم عن السيئات ، فظهر أن لهذا اللوح تقدماً على اللوح المحفوظ من جهة لصيرورته سبباً لحصول بعض الأعمال ، فبذلك انتقش في اللوح المحفوظ حصوله فلا يتوّهم أن بعد ما كتب في هذا اللوح حصوله لا فائدة في المحو والإثبات ، ومنها أنه إذا أخبر الأنبياء والأوصياء أحياناً من كتاب المحو والإثبات ثم أخبروا بخلافه يلزمهم الإذعان به ، يكون في ذلك تشديداً للتكليف عليهم تسبيباً لمزيد الأجر لهم كما في سائر ما يبتلي الله عباده به من التكاليف الشاقة وإيراد الأمور التي تعجز أكثر العقول عن الإحاطة بها ، وبها يمتاز المسلمون الذين فازوا بدرجات اليقين عن الضعفاء الذين ليس لهم قدم راسخ في الدين ، ومنها أن تكون هذه الأخبار تسلية لقوم من المؤمنين المنتظرين لفرج أولياء الله وغلبة الحق وأهله كما روى في قصة نوح حين أخبر بهلاك القوم ثم أخّر ذلك مراراً وكما روى في فرج أهل البيت عليهم السلام وغلبيتهم ، لأنهم عليهم السلام لو كانوا أخبروا الشيعة في أول ابتلائهم باستيلاء المخالفين وشدة محنتهم أنه ليس فرجهم إلّا بعد ألف سنة أو ألفي سنة ليئسوا ورجعوا عن الدين ، ولكنهم عليهم السلام أخبروا شيعتهم بتعجيل الفرج ، وربما أخبروهم بأنه يمكن أن يحصل الفرج في بعض الأزمنة القريبة ليثبتوا على الدين ، ويثابوا بانتظار الفرج كما جاء في باب كراهية التوقيت من كتاب الحجة ، عن علي بن يقطين قال قال لي أبو الحسن عليه السلام : الشيعة تربي بالأماني منذ مائتي سنة قال : وقال يقطين لابنه علي بن يقطين ما بالنا قيل لنا فكان ، وقيل لكم فلم يكن؟ قال : فقال له علي : إن الذي قيل لنا ولكم كان من مخرج واحد ، غير أن أمركم حضر فأعطيتم محضه فكان كما قيل لكم ، وإن أمرنا لم يحضر فعللنا بالأماني فلو قيل لنا ان هذا الأمر لا يكون إلّا إلى مائتي سنة أو ثلثمائة سنة

لقست القلوب ، ورجع عامة الناس عن الإسلام ، ولكن قالوا ما أسرعه وما أقربه تألفاً لقلوب الناس ، وتقريباً للفرج ، ومعنى قوله : قيل لنا أي خلافة العباسية ـ وكان من شيعتهم ـ أو في دولة آل يقطين ، وقيل لكم : أي في أمر القائم وظهور فرج الشيعة .

ما رواه الجمهور
حول البداء

لقد أوردنا لقارئنا الكريم فيما تقدّم طائفة كبيرة من الأخبار التي تشير إلى ثبوت البداء إلّا أننا قد اقتصرنا على إيراد ما ذكره أئمة أهل البيت عليهم السلام في ذلك ، لذا يلزمنا الآن بأن نورد لقارئنا أيضاً بعض الأخبار الواردة في الموضوع من طريق أخواننا السنّة التي تصرّح بذلك لكي لا يلتبس الأمر على القارىء فيتوهم بأن القول بالبداء من مختصّات الشيعة واليوم ما أردنا بيانه فيما يلي :

أولاً : ما رواه أبو عثمان النهدي : « أن عمر بن الخطاب قال وهو يطوف بالبيت ويبكي » اللهم إن كنت كتبت عليّ شقوة أو ذنباً فامحه فإنك تمحو ما تشاء وتثبت ما تشاء وعندك أم الكتاب فاجعله سعادة ومغفرة .

ثانياً : عن همام قال : حدثنا الكلبي عن تفسير الآية المذكورة قال : ويمحي من الرزق ويزيد فيه ، ويمحي من الآجال ويزيد فيه ، قلت : من حدّثك؟ قال : أبو صالح عن جابر بن عبدالله بن رئاب الأنصاري عن النبي (ص) .

ثالثاً : ما جاء على لسان (أبي الخطاب) عندما حارب أصحابه عيسى بن موسى والي السفاح على الكوفة سنة ١٣٨هـ وإن أبا الخطاب قال

لهم : قاتلوهم فإن قصبكم تعمل فيهم عمل الرماح والسيوف ، ورماحهم وسيوفهم لا تضركم ولا تحل فيكم ، فتقدمهم عشرة عشرة للمحاربة فلما قتل منهم نحو ثلاثين رجلاً قالوا له : ما ترى ما يحل بنا من القوم ، وما ترى قصبنا يعمل فيهم ولا يؤثر ، وقد عمل سلاحهم فينا ، وقتل من ترى منا ، فذكر لهم ما رواه العامة ، إنه قال لهم : إن كان قد بدا لله فيكم فما ذنبي؟ .

رابعاً : في الجامع الصحيح للبخاري (عن أبي هريرة) قال : سمعت النبي (ص) يقول : من سرّه أن يبسط له في رزقه وأن ينسأ له في أثره ، فليصل رحمه) .

وفي فضل الصدقة : عن أنس بن مالك ، قال : قال رسول الله (ص) : إن الصدقة لتطفىء غضب الرب ، وتدفع عن ميتة السوء .

خامساً : قال النبي (ص) : الدعاء سلاح المؤمن ، والدعاء يرد القضاء ، في العمر ، وقالوا : الدعاء بين الأذان والإقامة لا يرد ، وقال النبي (ص) : استقبلوا البلاء بالدعاء .

الدعاء يؤكد لنا
ثبوت البداء

لكي يتبين لقارئنا الكريم كيف أن الدعاء يؤكد لنا وقوع البداء يجب علينا بيان أمرين يكون من خلالهما معرفة ذلك .

الأمر الأول : أن الشريعة الإسلامية الغراء قد حثّت معتنقيها على الدعاء والتوسل حثاً بالغاً بالأمر الاستحبابي المؤكد وذلك من خلال النصوص الفرقانية الكريمة والأحاديث النبوية والمعصومية الشريفة التي دوّنها العلماء في كتب الحديث وكتب التفاسير وغيرها وهذا الحثّ على الدعاء من قبل الشريعة لا بد وأن يكون له معنى فإن فسّر هذا المعنى بأنه يدل على إيمان الشريعة بظاهرة التغير والتبدل في بعض الأمور بواسطة الدعاء فقد تم المطلوب لأن التغيّر والتبدل الحاصل في بعض الأمور بواسطة الدعاء يدلان بدورهما على وقوع البداء لأن معنى البداء في الاصطلاح هو التغيّر والتبدّل كما عرفت فيما سبق تفصيل ذلك مع بيان الوجه الصحيح لمعنى التغيّر والتبدّل ، أما إذا فسّر المعنى بخلاف ما ذكرنا فلا يتم به مطلوبنا إلاّ أن تفسير المعنى بخلاف ما ذكرناه لا يكون مطابقاً للواقع .

الأمر الثاني : يلزمنا لأجل التيمّن والتبرك أولاً ولكي يتسنّى لقارئنا معرفة

ما نحن بصدده . ثانياً أن نعطر كتابنا ولو بنزر قليل من النصوص الفرقانية والأحاديث المحمدية والعلوية الآمرة والحاثة على الدعاء وكذلك نعظ أيضاً بذكر بعض المواطن التي استجيبت فيها دعوات الأنبياء والأئمة والأولياء عليهم السلام وذلك لنعرّف من خلالها القارىء الكريم أن بوسعه أيضاً تغيير وتبديل مجاري أموره من الأسوأ إلى الأحسن والأفضل وذلك بواسطة الدعاء المحثوث عليه من قبلها بل وحتى من قبل غيرها من الأديان وسوف تعرف ذلك فيما يأتي إن شاء الله تعالى .

أما الآن فتعامل معي لكي نستخلص ما وعدناك بواسطة النصوص الفرقانية التالية :

الآية الأولى : قوله تعالى : ﴿ وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أُجيب دعوت الداع إذا دعان ﴾ .

الآية الثانية : قوله تعالى : ﴿ وقال ربكم ادعوني أستجب لكم ﴾ .

الآية الثالثة : قوله تعالى : ﴿ وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إلٰه إلاّ أنت سبحانك إني كنت من الظالمين فاستجبنا له ونجّيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين ﴾ .

الآية الرابعة : قوله تعالى : ﴿ وأيّوب إذ نادى ربه اني مسّني الضر وأنت أرحم الراحمين فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين ﴾ .

الآية الخامسة : قوله تعالى : ﴿ ونوحاً إذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم ﴾ .

الآية السادسة : قوله تعالى : ﴿ وزكريا إذ نادى ربه ربي لا تذرني فرداً وأنت خير الوارثين ، فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه ، إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين ﴾ .

الآية السابعة : قوله تعالى : ﴿ قال ربي أنّى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر قال كذلك يفعل الله ما يشاء ﴾ .

الآية الثامنة : قوله تعالى : ﴿ أو كالذي مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنّى يحيي هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثمّ بعثه ﴾ .

فهذه المجموعة من الآيات الكريمة واضحة الدلالة في معنى التغيّر والتبدّل من حال إلى حال بواسطة دعوات الأنبياء في الآيات المذكورة ففي الآية الأولى والآية الثانية نجد أن الله تعالى قد وصف نفسه بالاستجابة عند الدعاء ، والاستجابة من الله تعالى تعني تبدّل وتغيّر في الأمر من الأسوأ إلى الأحسن والأفضل كما في الدعاء المشهور : (اللهم غيّر سوء حالنا بحسن حالك) وفي الآية الثالثة نجد أن ذا النون وهو يونس عليه السلام دعى الله تعالى وهو في ظلمات بطن الحوت فاستجاب الله تعالى له وصرف عنه الغم ، ومعلوم أن صرف الغم معناه تغيّره بحال أحسن ، وفي الآية الرابعة نجد أن أيّوب النبي عليه السلام لما ابتلاه الله تعالى وصيّر بدنه كله قرحة واحدة عمد إلى الدعاء وطلب من الله تعالى أن يغيّر عليه ما هو فيه من البلاء ، وفي الآية الخامسة نجد أن نبيّ الله نوح عليه السلام طلب من الله تعالى أن ينجّيه وأهله من الكرب العظيم والمعنى واضح أيضاً ، ونرى في الآية السادسة أن زكريّا طلب من ربه أن يغيّر حاله من كونه خالي الذرية ، إلى حالة أخرى وهي التمتع بالذرية وهكذا استجاب الله تعالى دعائه ووهبه البنين مع كونه كبير وعقيم وقد حكى الله تعالى في القرآن الكريم ذلك لما بشرته الملائكة بيحيى حين دعى الله تعالى أن يهب له ذرية : ﴿ قال ربي أنّى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر قال كذلك يفعل الله ما يشاء ﴾ .

ويؤيد ما نحن بصدده أيضاً جملة من الأحاديث النبوية الشريفة الواردة من طريق أهل العصمة عليهم السلام .

منها : الخبر المسند عن ميسر بن عبدالعزيز عن أبي عبدالله الصادق

عليه التحية والسلام قال : (قال لي : يا ميسر ادع الله تعالى ولا تقل إن الأمر قد فرغ منه إن عند الله عزَّ وجلَّ منزلة لا تنالها إ لابمسألة ، ولو أن عبداً سدّ فاه ولم يسأل لم يعط شيئاً ، فاسأل تعط ، يا ميسر ليس من باب يقرع إلاَّ يوشك أن يفتح لصاحبه .

ومنها : خبر بسطام الزيّات ، عن أبي عبدالله الصادق عليه السلام قال : إن الدعاء يرد القضاء وقد نزل من السماء وقد أبرم إبراماً .

ومنها : ما ورد عن أبي حمزة قال : قال أبو جعفر عليه السلام : صلة الأرحام تزكي الأعمال وتنمي الأموال وتدفع البلوى ، وتيسّر الحساب وتنسى في الأجل .

ومنها : ما جاء عن عمر بن يزيد قال : سمعت أبا الحسن عليه السلام يقول : إن الدعاء يرد ما قدّر وما لم يقدّر ، قلت : ما قدّر قد عرفته فما لم يقدّر ما هو قال : حتى لا يكون .

ومنها : ما روي عن محمد بن عبدالله قال : قال أبو الحسن الرضا عليه السلام : يكون الرجل يصل رحمه فيكون قد بقي من عمره ثلاث سنين فيصيرها الله تعالى ثلاثين سنة ويفعل الله ما يشاء .

ومنها : ما جاء من الأحاديث المستملة على مواطن استجابة دعوات المعصومين وغيرهم وهي دالة أيضاً على مطلوبنا وإليك بعضها :

أولاً : ما ورد عن جعفر بن محمد القلانسي قال : كتب محمّد أخي إلى أبي محمّد عليه السلام ـ وامرأته حامل مقرب ـ أن يدعو الله أن يخلّصها ويرزقه ذكراً ويسمّيه ، فكتب يدعو الله بالصلاح ويقول : رزقك الله ذكراً سوياً ، ونعم الاسم محمد وعبدالرحمن فولدت اثنين في بطن ، أحدهما في رجله زوائد في اصبعه والآخر سوياً فسمي واحداً محمداً والآخر صاحب الزوائد عبدالرحمن .

أقـول : يحتمل أن الله تعـالى قد قـدّر على محمداً قـدراً غير مبـرم بأن يكون أيضاً صاحب زوائد كأخيه عبدالرحمن فرفع الله تعالى عنه ذلك بواسـطة دعاء مولانا الأعظم أبي محمد عليه التحية والسلام .

ثـانياً : عن محمـد بن مسلم قال : سـرت مـع أبي جعفـر مـا بين مكـة والمـدينة وهـو على بغلة وأنـا على حمـار لـه ، إذ أقبـل ذئب يهـوي من رأس الجبـل حتى دنىٰ من أبي جعفر عليـه السلام فحبس البغلة ودنى الـذئب حتى وضع يده على قربوس سرجه وتطاول فضـمه اليه واصغىٰ إليه أبو جعفر مليـاً ثم قـال إذهب فقد فعلتُ فـرجع الـذئب وهو يهـرول فقال لي (ع) تـدري ما قـال فقلت : الله ورسـوله وابن رسـوله أعلم قـال : إنّه قـال لي : يـابن رسـول إن زوجتي في ذلك الجبل وقد عسر عليها ولادتها فادع الله تعالى أن يخلّصهـا ولا يسلّط أحداً من نسـلي على أحدٍ من شيعتكم قلت : قد فعلتُ .

ثالثاً : ما جاء في حـديث عن أنس قال : قـام رجلٌ فقـال يا رسـول الله ادع الله تعالى أن يسقينا فتغيّمت السماء ومطرنـا حتى ما كـاد الرجـل أن يصل إلى منزله ، فلم نزل نمطر إلى الجمعة المقبلة فقال (ص) : اللهم حوالينا ولا علينا فجعل السحاب يتقطع حول المدينة ولا يمطر أهل المدينة .

رابعاً : ما جاء في كتاب الدعاء من اصول الكافي للإمام الكليني قال : تعددت الأحاديث والروايات التي اسنادها من الأئمـة عليهم السلام وهي تـأكد المعنى على أن الله يستجيب إذا دعي ، ويعـطي إذا سئل ، ويـدفع البـلاء إذا اعتمد .

خامسـاً : مـا جاء في الكتـاب المقـدس عن امرأة عاقـر تدعى (حنّـة) تـوجهت إلى الله بالـطلب أن يرزقهـا مولـوداً ذكراً وانهـا نذرت أن تحـرر ذلك المولود للخـدمة في هيكـل الرب ، وبعـد صلاة ودعـاء أخبرت بـأن الله تعالى يمنحها بغيتها .

سادساً : ما جاء في الكتاب المقدس أيضاً عن رجل يدعى (حز قيـلا) مرض مرض الموت ، فجاءه النبي « أشعيا » بأمر من الله يأمره بالوصية ، لأنـه سيموت ، وبدلاً من أن يستـسلم حزقيل للأمر تـوجه إلى الله بـالصلاة والـدعاء مناجياً إيّاه تعالى بأنه رجل حسن السيرة والسلوك وفاعل للخيـر ، ويطلب رفـع الموت عنه حتى حين عند ذلك أوحى الله تعالى إلى النبي « أشعيا » قائلًا له : (إذهب إلى حزقيل وقل له لقد استجاب الله دعائك وقد زاد في عمرك خمسـة عشرة سنة) .

سابعاً : ما رواه الرواة عمّا للسيدين الشريفين والإمامين العظيمين مولانا الأكرم الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه التحية والصلاة والسـلام ، ومولانـا الأعظم الإمام باب الحوائج موسى بن جعفر عليه التحية والصلاة والسـلام من الجاه الكبير عند الله تعالى الذي بواسطته استجيبت دعواتهما .

أمّا إمامنا جعفر (ع) فقد ذكروا أنـه إذا أراد شيء قال يـا ربّاه أنـا محتاج فيكون ذلك الشيء عنده ، وإن الله تعالى قد استجاب دعاءه في مواطن عديدة منها : أن الحكم بن عباس الكلبي قال :

صلبنـا لكم زيـداً على جـذع نخلة ولم نـرَ مهـديّاً على الجـذع يُصلب
وقستم بعثمـان عليـاً سفـاهـة وعثمـان أزكى من علي وأطيـب

ولما بلغ الصادق ذلك غضب ودعا عليه ، فقال : اللهم سلّط عليـه كلباً من كلابك يأكله فبعثه بنو أمية إلى الكوفة فافترسه الأسد في الطريق .

ومنها : ما ذكروه له عليـه السلام مـا كان من قصـد المنصور لـه بالقتـل مراراً عديدة ، فيحول الله تعالى بينه وبين ما عزم عليه ببركة دعائه ، بل ينقلب حاله إلى ضد ما نواه وعزم عليه ، فينهض لاستقباله ويبالغ في إكرامه .

ومنها : قال زيد الشحام : إني لأطوف حول الكعبـة وكفي في كفّ أبي عبدالله عليه السلام فقال : ودموعه تجري على خديه ياشحام ما رأيت ما صنع

ربي إليَّ ، ثم بكى ودعا ، ثم قال : بإشحام إني طلبت إلى إلهي في سدير وعبدالسلام بن عبدالرحمن وكانا في السجن فوهبهما لي وخلي سبيلهما .

ومنها : أن داود بن علي العباسي والياً على المدينة من قبل المنصور بعث على المعلّى بن خنيس مولى الصادق عليه السلام فقتله ، ولم يقنع بذلك حتى أراد السوء مع الإمام فغضب الإمام لذلك ودعا على داود حتى سمعوه يقول : الساعة الساعة ، فما استتمّ دعاؤه حتى سمعت الصيحة في دار داود وقالوا إنه مات فجأة .

ومنها : ما حدث به الليث بن سعد قال حججت سنة ١١٣ ، فلما صلّيت العصر رقيت أبا قبيس فإذا رجل جالس يدعو فقال : يا رب يا رب يا رب حتى انقطع نفسه ، ثم قال : يا حي يا حي يا حي حتى انقطع نفسه ، ثم قال : إلّهي اشتهي العنب فأطعمنيه ، وان بردي قد خلقا فاكسني ، قال الليث فما تمّ كلامه حتى نظرت إلى سلة مملوءة عنباً ، وليس على الشجر يومئذٍ عنب ، وإذا ببردين لم أر مثلهما ، فأراد الأكل فقلت أنا شريكك لأنك دعوت وأنا أؤمن. قال : كل ولا تخبيء ولا تدخر ، ثم دفع إليَّ أحد البردين ، فقلت : لي عنه غنى ، فاتَّزر بأحدهما وارتدى بالآخر ، ثم أخذ الخلقين ونزل ، فلقيه رجل فقال : اكسني يا ابن رسول الله فدفعهما إليه فقلت من هذا؟ قال جعفر الصادق (ع) ، وفي رواية مطالب السؤل فتقدمت فأكلت شيئاً لم آكل مثله قط ، وإذا عنب لا عجم ، فأكلت حتى شبعت والسلة لم تنقص .

ومنها : أن حبابة الوالبية دخلت عليه وهي من فاضلات النساء ، فسألته عن مسائل في الحلال والحرام فتعجّب الحضور من تلك المسائل ، لأنهم ما رأوا سائلاً أحسن منها ، ثم سالت دموعها ، فقال الصادق عليه السلام : ما لي أرى عينيك قد سالت ؟ قالت يا ابن رسول الله (ص) داء قد ظهر بي من الأدواء الخبيثة التي كانت تصيب الأنبياء عليهم السلام والأولياء وإن أهل

قرابتي وأهل بيتي يقولون : قد أصابتها الخبيثة ، ولو كان صاحبها كما قالت مفروض الطاعة لدعا لها ، وكان الله يذهب عنها ، وأنا والله سررت بذلك ، وعلمت أنه تمحيص وكفارات وأنه داء الصالحين ، فقال لها الصادق عليه السلام ، وقد قالوا : أصابك الخبيثة ، قالت نعم يا ابن رسول الله (ص). فحرّك شفتيه بشيء فلا يُدرى أفي دعاء كان ، فقال ادخلي حتى تنظري إلى جسدك ، فدخلت وكشفت عن ثيابها فلم تجد في صدرها ولا جسدها شيئاً فقال: يتقرّب إلى الله بإمامته .

وحبابة هذه هي ابنة جعفر الأسدي ، والوالبية نسبة إلى بني والبة بطن من أسد وهي صاحبة الحصاة التي طبع فيها أمير المؤمنين عليه السلام علامة للإمامة ، وعمّرت حتى أدركت الرضا عليه السلام ، وماتت في أيّامه وكفنها في قميصه ، ولم تكن هذه الكرامة الأولى التي شاهدتها من أئمة أهل البيت ، بل جاءت إلى الحسين عليه السلام وبها برص فعوفيت منه وإلى السجّاد عليه السلام وهي تعد يومئذٍ ١١٣ عاماً وقد بلغ بها الكبر حتى أرعشت فرأته راكعاً أو ساجداً فيئست من الدلالة فأومأ إليها بالسبابة فعاد إليها شبابها ، ولما جاءت إلى الرضا أعاد عليها شبابها في رواية ، ولكنها اختارت الموت فماتت في داره .

ما رواه طرخان النحاس قال : مررت بأبي عبدالله عليه السلام ، وقد نزل الحيرة ، فقال : ما علاجك ؟ قلت: نخّاس ، قال : أصيب لي بغلة فضخاء، قلت: جعلت فداك وما الفضخاء؟ قال: دهماء بيضاء البطن والأفخاذ بيضاء الجحفلة ، فقلت : والله ما رأيت مثل هذه الصحيفة ، فرجعت من عنده فساعة دخلت الخندق إذا أنا بغلام قد أسقى بغلة على هذه الصفة ، فسألت الغلام لمن هذه البغلة؟ قال : لمولاي ، قلت يبيعها ؟ قال : لا أدري ، فتبعته حتى أتيت مولاه فاشتريتها منه ، وأتيته فقلت : هذه الصفة التي أردتها جعلت فداك ادع الله لي ، فقال : أكثر الله مالك وولدك قال : فصرت أكثر أهل الكوفة مالاً وولداً .

ومنها : أن امرأة جاءت فقالت لـه : جعلت فداك أبي وأمي وأهـل بيتي نتولآكم فقال : صدقت فما الذي تريدين؟ قالت : جعلت فداك؟ يا ابن رسول الله (ص) أصـابني وضـح في عضـدي فـادع الله أن يـذهبـه عني فقـال عليـه السلام :

اللهم إنك تبرىء الأكمـه والأبرص وتحيـي العـظام وهي رميم ، ألبسها عفوك وعافيتك ما ترى أثر إجابة دعائي .

فقالت المرأة : والله لقد قمت وما بي منه قليل ولا كثير .

ومنهـا : أن أبا عبـدالله عليه الســلام ومعه بعض أصحـابه يتغدّون فقال لغلامه : انطلق وآتنا بمـاء زمزم ، فـانطلق الغـلام فما لبث أن جـاء وليس معه ماء ، فقال : إن غلاماً من غلمان زمزم منعني الماء . وقال : أتـريد المـاء لإلّه العراق ، فتغيّر لون أبي عبدالله عليـه الـسلام ورفـع يده عن الـطعام وتحـرّكت شفتاه ، ثم قال للغلام : ارجع فجئنا بالماء ، ثم أكل فلم يلبث أن جاء الغلام بالماء وهو متغيّر اللون ، فقال : ما وراءك؟ فقـال : سقط ذلك الغـلام في بئر زمزم فتقطّع وهم يخرجونه فحمد الله عليه .

ومنها : أنه أرسل غلامه مرّة إلى بئر زمزم ليأتيه بالماء ثم سمعوه يقول : اللهم أعم بصره ، اللهم أخرس لسـانه ، اللهم أصم سمعـه ، فرجـع الغلام يبكي ، فقال : ما لكَ؟ . قال : إنّ فلاناً القرشي ضربني ومنعني من السقـاء ، قـال : ارجع فقـد كفيته ، فـرجع وقـد عُمي وصُمّ وخرس وقـد اجتمـع عليـه الناس .

ومنها : أن شيخاً جـاء إليه وهـو تحت الميزاب في البيت ومعـه جماعـة من أصحابه فسلّم عليـه ، ثم قال : يـا ابن رسول الله إني أحبّكم أهـل البيت وأبـرأ من عدوّكم وإني بليت بـبلاء شديـد ، وقـد أتيت البيت متعـوّذاً بـه ممـا أجـد ، ثم بكى وأكبّ على الصادق يقبّـل رأسه ورجليـه والصـادق يتنحّى عنـه

فرحمه وبكى ، ثم قال : هذا أخوكم وقد أتاكم متعوّذاً بكم فارفعوا أيديكم ، فرفع الصادق يديه ورفع القوم أيديهم ، ثم قال : اللهم إنك خلقت هذه الأنفس من طينة أخلصتها ، وجعلت منها أولياءك وأولياء أوليائك ، وإن شئت أن تنحي عنهم الآفات فعلت ، اللهم وقد تعوذنا ببيتك الحرام الذي يأمن به كل شيء وقد تعوّذ بنا ، وأنا أسألك يا من احتجب بنوره عن خلقه أسألك بحق محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين يا غاية كل محزون وملهوف ومكروب ومضطر مبتلى أن تؤمنه بأماننا مما يجد ، وأن تمحو من طينته مما قدر عليها من البلاء ، وأن تفرج كربته يا أرحم الراحمين ، فلما فرغ من الدعاء انطلق الرجل فلما بلغ باب المسجد رجع وبكى ثم قال الله أعلم حيث يجعل رسالته والله ما بلغت باب المسجد وبي مما أجد قليل ولا كثير .

ومنها : ما حدّثنا به بكر بن محمّد الأزدي ، قال : عرض لقرابة لي عارض ونحن في طريق مكة ، فلما صرنا إلى أبي عبدالله عليه السلام ذكرنا ذلك له وسألناه الدعاء له ففعل ، قال بكر : فرأيت الرجل حيث عرض له ، ورأيته حيث أفاق .

ومنها : لما سأله حمّاد بن عيسى : « أن يدعو الله بأن يرزقه ما يحجُّ به كثيراً وأن يرزقه ضياعاً حسنة وداراً حسنة وزوجة من أهل البيوتات صالحة وأولاداً أبراراً ، فدعا له الصادق عليه السلام بما طلب ، وقيّد الحج بخمسين حجة ، فرزقه الله جميع ما سأله ، وحج خمسين حجة .

ومنها : لما سجن المنصور عبدالحميد فأخبروا الصادق عليه السلام بذلك وهو في الموقف بعد صلاة العصر ، فرفع يديه ساعة ، ثم التفت إلى محمّد بن عبدالله وقال عليه السلام : قد والله خلّى سبيل صاحبك ، قال محمّد : فسألت عبدالحميد أي ساعة خلّاك أبو جعفر المنصور؟ قال : يوم عرفة بعد العصر .

هذه بعض المواطن التي قد استجاب الله تعالى فيها دعاء هذا المولى

العظيم والإمام الكريم ابن السادة الانجاب والأئمة الأطياب ، وأما ما ذكروه لمولانا باب الحوائج من المواطن التي استجيبت فيها دعواته فهي كثيرة أيضاً إلاّ أننا خشية من الإطالة فسوف نقتصر على موطن واحد منها نعطّر به كتابنا وذلك ما ذكره شقيق البلخي الذي يروي في حديث لنا كيف استجاب الله تعالى دعاء مولانا باب الحوائج عليه السلام وذلك لمّا سقطت ركوة كانت بيده في البئر وكيف قد أرجعها الله تعالى عليه بواسطة دعاءه المستجاب. فلنستمع الآن إلى ما يحدثنا به شقيق رضوان الله عليه . . نعم إنّه يقول:

خرجت حاجاً في سنة تسع وأربعين ومائة ، فنزلنا القادسية فبينا أنا أنظر إلى الناس في زينتهم وكثرتهم فنظرت إلى فتى حسن الوجه شديد السمرة ضعيف فوق ثيابه ثوب من صوف ، مشتمل بشمله ، في رجليه نعلان ، وقد جلس منفرداً فقلت في نفسي : هذا الفتى من الصوفية يريد أن يكون كلاً على الناس في طريقهم ، والله لأمضيّن إليه ولأوبّخنّه فدنوت منه ، فلما رآني مقبلاً قال : يا شقيق (اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم) ثم تركني ومضى فقلت في نفسي : إن هذا الأمر عظيم قد تكلّم بما في نفسي ونطق باسمي وما هذا إلّا عبد صالح لألحقنّه ولأسألنه أن يحالني ، فأسرعت في أثره فلم ألحقه وغاب عن عيني .

فلما نزلنا واقصة وإذا به يصلّي وأعضاءه تضطرب ودموعه تجري ، فقلت : هذا صاحبي أمضي إليه وأستحله فصبرت حتى جلس وأقبلت نحوه ، فلما رآني مقبلاً قال : يا شقيق اتل : ﴿ وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى ﴾ ثم تركني ومضى فقلت : إن هذا الفتى لمن الأبدال لقد تكلم على سري مرتين .

فلما نزلنا زبالة إذا بالفتى قائم على البئر وبيده ركوة يريد أن يستقي ماء فسقطت الركوة من يده إلى البئر وأنا أنظر إليه ، فرأيته وقد رمق السماء وسمعته يقول:

أنت ربيّ إذا ظمئت إلى الماء وقوتي إذا أردت الطعاما

اللهم سيدي ما لي غيرها فلا تعدمنيها ، قال شقيق : فوالله لقد رأيت البئر وقد ارتفع ماؤها فمد يده وأخذ الركوة وملؤها ماء ، فتوضأ وصلى أربع ركعات ، ثم مال إلى كثيب رمل فجعل يقبض بيده ويطرحه في الركوة ويحركه ويشرب ، فأقبلت إليه وسلّمت عليه فرد عليّ السلام ، فقلت : أطعمني من فضل ما أنعم الله عليك، فقال : يا شقيق لم تزل نعمة الله علينا ظاهرة وباطنة، فأحسن ظنّك بربك ثم ناولني الركوة ، فشربت منها فإذا هو سويق وسكر ، فوالله ما شربت قط ألذ منه ولا أطيب ريحاً ، فشبعت ورويت وبقيت أياماً لا أشتهي طعاماً ولا شراباً ، ثم إني لم أره حتى دخلنا مكة ، فرأيته ليلة إلى جنب قبة الشراب في نفس الليلة قائماً يصلّي بخشوع وأنين وبكاء ، فلم يزل كذلك حتى ذهب الليل ، فلما رأى الفجر جلس في مصلّاه يسبح ثم قام الغداة وطاف بالبيت أسبوعاً فخرج فتبعته وإذا له حاشية وموال وهو على خلاف ما رأيته في الطريق ، ودار به الناس من حوله يسلمون عليه ، فقلت لبعض من رأيته يقرب منه ، من هذا الفتى؟ فقال : هذا موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام ، فقلت قد عجبت أن تكون هذه العجائب إلاَّ لمثل هذا السيد .

ولقد نظم بعض المتقدمين واقعة شقيق معه في أبيات طويلة نقتصر على ذكر بعضها :

سل شقيق البلخي عنه وما عاين منه وما الذي كان أبصر
قال لما حججت عاينت شخصاً شاحب اللون ناحل الجسم أسمر
سايراً وحده وليس له زاد فما زلت دائماً أتفكر
وتوهّمت أنه يسأل الناس ولم أدر أنه الحج الأكبر
ثم عاينته ونحن نزول دون قيد على الكثيب الأحمر
يضع الرمل في الإناء ويشربه فناديته وعقلي محير

ومجمل القول أن كلما ذكرته لقارئي العزيز من الموارد المتعددة التي قد استجاب الله تعالى فيها دعوات الأنبياء والأولياء سيّما دعوات الإمامين الكريمين والسيدين العظيمين مولانا الأعظم صادق آل محمد ومولانا الأعظم الإمام باب الحوائج موسى بن جعفر عليهم التحية والسلام أن كلما ذكرته من موارد استجابة أدعيتهم لهو أكبر دليل على تغيّر الأمور بواسطة الدعاء من الأسوأ إلى الأحسن بالنسبة للداعي وتغيرها بالعكس من الأحسن إلى الأسوأ بالنسبة للمدعو عليه ، وهذا بدوره يؤكد لنا وقوع البداء لكن يجب أن يفهم بأن مجرد قراءة الدعاء لا يمكن أن يغيّر مجاري الأمور إلاّ مع مراعاة آدابه وشرائطه .

لذا ينبغي للداعي أن يحافظ على الأمور التالية :

أولاً : الإقبال بالقلب ، لأن من لا يقبل عليك لا يستحق إقبالك عليه ، كما لو حادثك من تعلم غفلته عن محاورتك وإعراضه عن مجاورتك ، فإنه يستحق إعراضك عن خطابه واشتغالك عن مجاورتك ، فإنه يستحق إعراضك عن خطابه واشتغالك عن جوابه .

قال الصادق (ع) : من أراد أن ينظر منزلته عند الله فلينظر منزلة الله عنده فإن الله ينزل العبد مثل ما ينزل العبد الله من نفسه .

وقال أمير المؤمنين عليه السلام : لا يقبل الله دعاء لاه .

ثانياً : تسمية الحاجة ، والتعميم في الدعاء ، والبكاء في حالته ، والاعتراف بالذنب قبل السؤال ، والتقدم في الدعاء قبل الحاجة إليه ، وأن لا يعتمد في حوائجه على غير الله وأن لا يلحن في الدعاء .

ثالثاً : عن الصادق (ع) قال : احفظ آداب الدعاء ، وانظر من تدعو وكيف تدعو ولماذا تدعو ، وحقق عظمة الله وكبريائه ، وعاين بقلبك علمه بما

في ضميرك واطلاعه على سرك وما كمن فيه من الحق والباطل ، واعرف طرق نجاتك وهلاكك كي لا تدعو الله بشيء عسى فيه هلاكك وأنت تظن أن فيه عجولاً) وتفكر ماذا تسأل ولماذا تسأل ، والدعاء استجابة الكل منك للحق .

رابعاً : تذويب المهجة في مشاهدة الرب ، وترك الاختيار جميعاً ، وتسليم الأمور كلها ظاهرها وباطنها إلى الله ، فإن لم تأت بشرط الدعاء فلا تنتظر الإجابة ، فإنه يعلم السر وأخفى ، فلعلّك تدعوه بشيء علم من نيتك بخلاف ذلك .

خامساً : أن تعلم أنه لو لم يكن أمرنا الله بالدعاء لكنا إذا أخلصنا الدعاء تفضل علينا بالإجابة ، فكيف وقد ضمن ذلك لمن أتى الشرائط اى شرائط الدعاء ، قال : فإذا أتيت بما ذكرت من شرائط الدعاء وأخلصت سرك لوجهه فأبشر بإحدى ثلاثة ، أما أن يعجل لك بما سألت ، أو يدخر لك ما هو أعظم منه ، وإما أن يصرف عنك من البلاء ما أن لو أرسله عليك لهلكت .

وروى عن الصادق عليه السلام أنه قرأ: ﴿ أمن يجيب المضطر إذا دعاه ﴾ فسئل ما لنا ندعو ولا يستجيب لنا؟ فقال : لأنكم تدعون من لا تعرفون وتسألون ما لا تفهمونه .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

أهم مصادر الكتاب

١ ـ القرآن الكريم	
٢ ـ نهج البلاغة	الإمام علي (ع)
٣ ـ مصابيح الأنوار	آية الله السيد عبدالله شبر
٤ ـ عيون أخبار الرضا	الشيخ الصدوق
٥ ـ حق اليقين	آية الله السيد عبدالله شبر
٦ ـ نظرية البداء	عبدالزهرة البندر
٧ ـ أصول الكافي	الكليني
٨ ـ الفصول المهمة	الحر العاملي
٩ ـ الإنسان في مراحله الست	السيد علي الشاهر ودي
١٠ ـ البداية والنهاية	ابن الأثير
١١ ـ بحار الأنوار	العلامة المجلسي
١٢ ـ الكافي	الكليني
١٣ ـ التوفيق بين الشيعة والسنة	الدكتور مصطفى الرافعي
١٥ ـ الإمام الصادق	محمد الحسين المظفر
١٧ ـ كشف الغمة	المحقق الأربلي
١٨ ـ جامع السعادات	المولى المحقق محمد مهدي النراقي

الفهرس